اللغة والمسرح

بقلم الدكتور محمد ابو الفرج

مدرس العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية

المندوب حاليا للتدريس بجامعة بيروت العربية

* * *

وضح الاستاذ توفيق الحكيم في المقدمة التي كتبها لمسرحيته الورطة (الاهرام بتاريخ ١٩\٣\٦٥) انها محاولة « فيما يتعلق بمشكلة اللغة المناسبة للتمثيلية العصرية في بلادنا » . فهو يشكو ويقول « على الرغم من اصطناعي لغة عربية مبسطة غاية التبسيط ، الا اني اجد عند التمثيل انه قد دفع بها الىمن يحولها او يترجمها الىاللغة العامية » . وهذا يزعجه لانه وضع عجيب . « فالاعتراف بوجود لغتين منفصلتين لامة واحدة ، تسعى الى اذابة الفوارق بين طبقاتها لامر لا يبشر بخير ، ولطالما عيرنا اهل اللغات الحية بان لغتنا العربية صائرة الى زوال ، لان الناس في تخاطبهم لا يتكلمونها ، وكان اهل المصلحة منهم يمعنون في ايهامنا بعمق الهوة بين الفصحى والعامية ، وباستحالة تلاقيها . والواقع الذي الاحظه اليوم ولاحظه كثيرون هو عكس هذا الزعم . فالعامية هي المقضي عليها بالزوال والفرق بينها وبين الفصحى يضيق يوما بعد يوم » .

ويورد الاديب الكبير تعبيرات كثيرة من العامية موضحا الفرق الطفيف بينها وبين الفصحى وربما تكون موافقة للفصحى تماما ، ويتابع الحكيم كلامه قائلا : « كل ما نرجوه ونراه الآن في الامكان هو العمل على قدر المستطاع على ازالة الوهم بوجود لغتين منفصلتين تقوم بينهما هوة سحيقة . فان هذا الاعتقاد هو الذي جعل كثيرا من كتابنا يمعنون في تعميق الهوة بدون مبرر احيانا لا لشيء الا لتأكيد انفصال العامية واظهارها بمظهر اللغة المستقلة » . ويتهم المتفاصحون كذلك بالعمل على زيادة الفرق بين اللغتين « اذن هي رغبة متعمدة من الطرفين لاختلاف هوة مصطنعة بين الكتابة والتخاطب او بين طبقتين من الناس » .

ويعتقد الكاتب ان اللغة فوق المسارح وعلى الشاشة تعرض بشكل كاريكاتوري مبالغ فيه ، ولذلك فقد كتب هذه المسرحية وحاول فيها التقريب بين اللغتين « فلغتها هي لغة التخاطب العادية في حياتنا اليومية ، ولكنها مع ذلك قريبة الى العربية الصحيحة . فهي اذن عند التمثيل لن تحتاج الى الترجمة الى ما يسمى بالعامية . وبذلك لن يكون هناك نصان للمسرحية الواحدة ، بل نص واحد » . « خلاصة القول عندي اني ارفض الاعتراف بوجود لغة منفصلة مستقلة اسمها العامية ، نترجم اليها العربية كما لو كانت العربية لغة اجنبية ، في حين ان الموجود هو مجرد لهجة تخاطب عربية استخدم فيها بعض الرخص والاختزالات والاستبدالات ... واننا بقليل من حسن النية وقوة الارادة نستطيع تدريجيا ان نرتفع باسلوب تخاطبنا العادي الى مستوى تضيق فيه الفروق بين الكتابة والتخاطب ، كما هو حادث في اللغتين الانجليزية والفرنسية » .

ويكتب الفنان الكبير مسرحيته التي اراد لها ان تكون تجربة لغوية كما كانت مسرحيته (الصفقة) تجربة اخرى منذ سنين ، ويقول عن مسرحيته الحديثة (الورطة) « قصدنا بها محاولة البحث في وسيلة الارتفاع بلغة الحوار العصري المسرحي ، وتقريبه على قدر المستطاع الى مستوى العربية السليمة ... المهم في الامر كله ان يكون هدفنا النهائي هو الارتفاع بلغة التخاطب لا الانحطاط بها ... اننا نتطلع الى الغد الذي نرى فيه لغة تخاطبنا العادية قد نظفت وارتفعت واصبحت اقرب ما تكون الى لغة الكتابة العربية الصحيحة » .

ويثير الاديب الكبير تساؤلا جديدا « المسألة التي كان يجب ان تكون محل التساؤل هنا هي : هل يجب ان نضع على المسرح اللغة العربية مباشرة ونعود الجمهور سماعها ؟ او نتدرج بالامر من خلال تجارب كهذه التجربة وغيرها للارتفاع بالعامية ؟ » ويعرج توفيق الحكيم على تاريخ المسرح فيقول : « انه لمن العجب ان يبدأ مسرحنا بالفصحى منذ عهد الشيخ سلامه حجازي وينجح النجاح الساحق امام جمهور في الحضر والريف ، قليل الحظ من التعليم ايام الاحتلال ثم ينتهي الى العامية الطاغية في عهد التعليم والاستقلال ... كنا باللغة الفصحى وحدها — في الادب والفن — وحدة حقيقية من الروح والفكر امتن واعمق من اي وحدة سياسية ... واليوم ونحن بسبيل وحدة سياسية حقيقية نجد الحدود اللغوية والروحية والفكرية قد وضعت بين البلد والبلد . واذا نحن اليوم في وضع غريب : سياسة القادة وحدوية ولغة الفنانين انفصالية » .

هذا ملخص تعمدت ان يكون وافيا لكلام الاديب الكبير ، والحقيقة ان المسألة هي هنا مشكلة العامية والفصحى . ولا شك ان هذه مسألة لا تختص باللغة العربية وحدها ، بل انها شائعة في كل اللغات التي يشغل متكلموها حيزا واسعا من الارض ، وخاصة اذا كان هناك نوع من الحدود السياسية او الادارية . ومثل شبيه باللغة العربية هو اللغة الالمانية ، فهناك لهجات عدة في النمسا واقسام المانيا المختلفة وفي سويسرا . ولكن هناك بعد ذلك اللغة التي يتعلمها الاطفال في المدارس ويكتب بها الادباء والكتاب عامة ، وهي ما يسمونه Hochdeutsch بينما يسمون العامية التي تستعمل في لهجات مختلفة Deutsch ، ومن الكتب

التي ظهرت حديثا كتاب German Dialects (اللهجات الالمانية) لمؤلفه R. E. Keller وقد ظهر عام ١٩٦١ . وكذلك الحال في اللغة الانجليزية ، فالفرق واضح لكل من يستمع بين نطق الانجليز ونطق الامريكان ، بل ان الفرق واضح بين مختلف اقسام انجلترا ذاتها . وقد الف الانجليز انفسهم كتبا في اختلاف اللهجات آخرها كتاب يطبع الآن في انجلترا ، ولم يتم طبع كل اجزائه بعد . وتقوم بوضعه جامعة ليدز ، وهو عبارة عن مسح للهجات الانجليزية Survey of English Dialects ثم ان هناك في بريطانيا لغة ويلز Welsh ولغة اسكتلنده وشمال ايرلنده Galic وهذه كلها ليست انجليزية . وتأكيد هذه الحقيقة ـ وهي ان في اللغة العربية نوعان هناك ما يسمى بالفصحى وهي لغة الادب والكتابة بل والتخاطب فيما بين ابناء الاقطار العربية المختلفة حينما يلتقون في صعيد واحد ، وهناك العاميات المختلفة ـ تأكيد هذه الحقيقة يزعج بعض الناس لما يقرؤنه في الكتب التي تبحث في الدراسات اللغوية عامة او في علم اللغة ، من ان اللغة تنقسم الى لهجات ثم تصبح اللهجات لغات مستقلة بمرور الزمن .

ومن هذا ما يقوله الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه علم اللغة « متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الارض . . . وتكلم بها جماعات كبيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الاولى امدا طويلا ، فلا تلبث ان تنشعب الى لهجات ، وتسلك كل لهجة من اللهجات في سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين اخواتها حتى تصبح لغة متميزة غير مفهومة الا لاهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الاولى فصيلة او شعبة من اللغات يختلف افرادها بعضها عن بعض في كثير من الوجود . . . » (١) . والذي يجعل المسألة اكثر ازعاجا تشبيه اللاتينية بالعربية وقد انقسمت اللاتينية الى لغات مستقلة فعلا . ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي ايضا في ذلك « فاللغة اللاتينية . . . وقد أخذت هي نفسها في اواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى ، تنشعب الى عدد كبير من اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج اخواتها حتى انفصلت عنها انفصالا تاما واصبحت لغة مستقلة متميزة غير مفهومة الا لاهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة ادب وكتابة . . . ولكنها لم تلبث ان تنحت عن ذلك بعد ان اكتمل نمو هذه اللغات (المتفرعة عنها والتي منها الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا) » (٢) .

ولكن شيوع التعليم وكثرة المواصلات وسرعتها وكثرة الاتصالات عامة ، جعلت الامر يختلف فيما بين العربية واللاتينية . وفي هذا يقول احد اساتذة علم اللغة بجامعة لندن « ان تشبيه العربية الفصحى اليوم باللاتينية التي ماتت تشبيه غير كامل على الاطلاق اذ ان هناك عناصر اساسية وهامة موجودة في الوقت الحاضر لم تكن موجودة في العصور الوسطى ، فالعربية الفصحى ليست حقا مخصصا لطبقة واحدة من المجتمع ، والتعليم الآن اكثر انتشارا ، والاتصال اكثر بين الجماهير ، والطائرات النفاثة تجعل العالم الحديث مكانا صغيرا في الحقيقة » (٣) .

ومن ذلك ما اورده الاستاذ الدكتور ابراهيم انيس في مقاله « لغة عالمية » بصدد التحدث عن المتفائلين والدلائل التي تؤيد تفاؤلهم في ايجاد لغة عالمية « ذلك لان انحلال اللغة الى لهجات فيما مضى من عصور التاريخ انما كان بسبب انعزال البيئات بعضها عن بعض ، وهو ما لا سبيل الى تصور حدوثه في العصر الحديث . فشبكة الاتصال بين شعوب العالم الآن وثيقة محكمة الحلقات ، ولن يشهد عالم المستقبل ما كان يسمى في الماضي بالبيئة المنعزلة ، اذ تزيد الحاجة الى توثيق الصلات بين بني البشر يوما بعد يوم » (٤) .

ويزداد الامر وضوحا اذا علمنا ان ما يسميه علماء اللغة « قانونا » مثل انقسام اللغة الى لهجات تستقل بعد مرور زمن طويل اذا ما اتسع انتشارها وكثر المتكلمون بها ليس حتميا ولا يشبه غيره من القوانين الطبيعية . وفي هذا يقول الاستاذ الذي تخصص في علم اللغة المرحوم الدكتور محمود السعران « ان اغلب ما يطلق عليه اللغويون « قوانين » لغوية ، ليس في جوهره الا خلاصات مركزة تصف ما كان او ما هو كائن في جانب من الجوانب ، ولا يتضمن مقدما الحكم على نفس الظاهرة لو توفرت فيها نفس الشروط مستقبلا . . . فدراسة اللغة لها موضوعها الخاص المستقل الجدير بالبحث وهو « اللغة » ، وهذه الدراسة تقوم على مناهج « علمية » سليمة ، وهي تتخذ من الوسائل ما ييسر

---

(١) علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الرابعة ١٩٥٧ ، مكتبة نهضة مصر ، ص ١٥٩ . (٢) المرجع السابق ص ١٦٠ . (٣) من مقدمة كتاب Colloquial Arabic في سلسلة Teach Yourself ، لمؤلفه T. F. Mitchell ص ١٢ . (٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الاول ، المجلد الاربعون ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . (٥) علم اللغة (مقدمة للقارىء العربي) ، للدكتور محمود السعران ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ، ص ٨ ، ١٠ ـ ١١ . (٦) مقدمة الفصل الاول من مسرحية الورطة ، صحيفة الاهرام ١٩ ـ ٣ ـ ٩٦٥ . (٧) مسرحية الصفقة ، نشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالقاهرة ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . (٨) مقدمة الفصل الخامس من مسرحية الورطة ، صحيفة الاهرام ١٦ ـ ٤ ـ ٩٦٥ . (٩) مسرحية الصفقة ، ص ١٥٩ . (١٠) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الاول ، المجلد الاربعون سنة ١٩٦٥ ، ص ١٥٦ . (١١) البيان والتبيين للجاحظ ، وتحقيق وشرح عبد السلام هارون ، جزء (١) ص ١٤٤ ، ١٤٥ ـ ١٤٦ . (١٢) كتاب الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، جزء (١) ص ٢٨٢ . (١٣) البيان والتبيين ، جزء (٤) ص ٢٦ . (١٤) البيان والتبيين ، جزء ١ ، ص ١٦٢ . (١٥) زهرة العمر ، للاستاذ توفيق الحكيم ، ص ١٨٧ . (١٦) مجلة الادب القاهرية عدد مايو ١٩٦٢ ص ٧٨ ـ ٧٩ . (١٧) المرجع السابق ص ١١٢ .

لها الوفاء بعملها على ادق وجه . وما تصل اليه دراسة اللغة على هذا النحو من حقائق واصول عامة او « قوانين » انما هو مستمد من طبيعة الموضوع ومتلائم واياها ، فاذا كانت طبيعة اللغة وحقيقتها تختلف عن طبيعة النبات (مثلا) وحقيقته ، فلا عجب ان تكون « القوانين » التي تؤدي اليها دراسة النبات دراسة علمية مغايرة من وجوه «للقوانين» التي تؤدي اليها دراسة اللغة » (٥) .

فلا داعي اذن للانزعاج ، ونستطيع ان نؤكد ـ مطمئنين ـ ان العربية باقية لن تنقسم ، بل ان لهجاتها الآن يقترب بعضها من بعض اكثر فاكثر . وقد لاحظ هذا بحق الاستاذ توفيق الحكيم في مقدمته لمسرحيته الورطة « فالعامية هي المقضي عليها بالزوال ، والفارق بينها وبين الفصحى يضيق يوما بعد يوم . ويكفي ان نستمع الى فلاحنا او عاملنا في مجلس الامة او مجالس الادارات ، ليتضح لنا ان لغة الكلام العادي قد ارتفعت الى المستوى الفصيح» . واضيف الى ذلك انه يكفي أن نستمع الى تعليقات العامة عن الفروق اللغوية بين اللهجات حتى نعلم أن الاختلاف بين اللهجات سائر الى زوال او الى تخفيف على الاقل . فقد يسمع الانسان من بائع الفاكهة في لبنان : « انتم تقولون عنها في مصر طماطم ونحن نقول بندوره » او « الكمثرى عندكم نحن نسميها اجاص » او « السكري عندكم نحن نسميه مغربي » . وان وسائل الاعلام المختلفة لتقرب كثيرا بين اللهجات ، بل وتقرب اللهجات الى الفصحى . وذلك مثل المذياع والسينما والتلفزيون ، فاذا عبرت هذه الوسائل الاعلامية بالعامية فانها تقرب بين العاميات ، واما اذا عبرت بالفصحى فانها تجعل كلمات الفصحى وتعبيراتها جزءا من العادات الكلامية لاهل اللهجات المختلفة فتقارب بذلك بين اللهجات وبين الفصحى . وفي هذا تقريب واضح بين العرب . وان الدلائل الكثيرة على ان مستقبل اللغة العربية سائر نحو الوحدة والتماسك ولا سبيل على الاطلاق ان يحدث لها ما حدث للاتينية . وحبذا لو تنبه الذين يعقدون الشبه بين اللغتين الى ما اشرنا اليه من الفوارق الكبيرة .

وكلام الاستاذ توفيق الحكيم يشير الى مسألتين متميزتين :

احداهما : ايجاد لغة للمسرحية قريبة من لغة الحياة اليومية ، يستطيع المسرح بها ان يعرض صورة حية لما تأتي به عبقرية الفنان في مسرحياته من تقليد للمجتمع . ونقصد بالتقليد هنا ما عناه ارسطو حين عرف الفن بانه تقليد للطبيعة . وقد قدم لنا توفيق الحكيم في ذلك تجربتين . الاولى : في مسرحية الورطة التي تحدثنا عنها آنفا ، وفيها اخذ ما اعتبر قريبا الى الفصحى من الكلام العامي فاستعمله في مسرحيته . وقال في مقدمتها مبررا ذلك انه يمكن استعمال « دا الوقت » او «دالوقت» فالدال والذال والضاد والظاء يحل احدهما في النطق محل الآخر في بعض البيئات والقبائل . فكلمة « فاض » كانت تنطق احيانا « فاظ » . ووردت في الكتب القديمة « فاظت روحه » . وعلى ذلك لا جناح في نطقنا « دا » و « دي » و « ده » بدلا من « ذا » و « ذي » و « ذه » ... وكذلك ما يسير على نهجها مثل « كذا » التي ننطقها « كدا » و « كده » . ويلحق بها كلمتا « ايه » و « ليه » مما شاع استعماله في حديثنا نحو : « ايه رأيك في المسألة ؟ » و « ليه امتنعت عن زيارتي ؟ » ... مثل هذه الرخص والاختزالات في التخاطب يمكن قبولها ، اذ من الشطط ان نطالب الناس بالطفرة ونلزمهم في مجالسهم العادية باستعمال كلمة « لماذا » بدلا من « ليه » حتى ينطقوا «لماذا امتنعت عن زيارتي ؟ » ... اذا اردنا ان نطاع فلنأمر بما يستطاع . كل ما نرجوه ونراه في الامكان ، هو العمل على ازالة الوهم بوجود لغتين منفصلتين تقوم بينهما هوة سحيقة » (٦) .

والتجربة الثانية ـ وهي سابقة من الناحية التاريخية ـ في مسرحية الصفقة التي نشرت عام ١٩٥٦ ، وفيها استعمل المؤلف اسلوبا فصيحا مبسطا « لغة صحيحة لا تجافي قواعد الفصحى وهي ـ في الوقت نفسه ـ مما يمكن ان ينطقه الاشخاص ولا ينافي طبائعهم ولا جو حياتهم ... بل ان القارىء ليستطيع ان يقراها قراءتين : قراءة بحسب نطق الريفي ، فيقلب القاف الى جيم او الى همزة تبعا للهجة اقليمه . فيجد الكلام طبيعيا مما يمكن ان يصدر عن ريفي ، ثم قراءة اخرى بحسب النطق العربي الصحيح ، فيجد العبارات مستقيمة مع الاوضاع اللغوية السليمة » (٧) .

ثانيتهما : استعمال الفصحى في لغة المسرحية مع دقة الالتزام بها وعدم التحايل لادخال شيء من العامية فيها ، وذلك لتأكيد الوحدة بين الاقطار العربية اذ تستعمل اللغة المشتركة في كل مكان فلا « تتفتت ثقافتنا وينقطع اتصالنا الفكري ونفقد ميزة لغة واحدة واسعة الانتشار ، كانت في ايدينا واضعناها في الوقت الذي تسعى فيه كل دولة كبرى وتحرص على ان تكون لغتها هي لغة الفكر والثقافة والتفاهم في أوسع رقعة ممكنة من العالم » (٨) .

وقبل الحديث في هاتين المسألتين اود ان اقول كلمة عن الفصحى والعامية . وقد اوضحت من قبل ان انقسام اللغات ـ وخاصة اذا انتشرت في رقعة واسعة ـ الى لهجات بجانب اللغة الفصحى (اي اللغة المشتركة) امر لا تختص به اللغة العربية ، انما هو موجود في غيرها من اللغات . والعامية لغة لها كل مقومات اللغة ، ويستطيع الكاتب اذا اراد ان يكتب بها مسرحيته او شعره . وقد فعل بيرم التونسي من قبل حين كتب ازجاله باللهجة المصرية فابدع واتى بفن جميل حقا ، ولكنه اغلق عليه

وعلى فنه حدودا ضيقة ، لا تشمل العالم العربي كله ، ولا تصل الى اغلب الاجانب الذين يهتمون بالعربية والذين يدرسون الفصحى عادة . كما ان مرور الزمن يغير من العامية اكثر مما يغير من الفصحى ، فقد يصبح من الصعب بعد حين فهم عامية بيرم التونسي مثلا . وقد تنبه توفيق الحكيم الى ذلك فقال : « ان استخدام العامية يقوم عليه اعتراض وجيه : هو ان هذه اللغة ليست مفهومة في كل زمن ولا في كل قطر ، بل ولا في كل اقليم » (٩) .

ولا شك ان العاميات في كل انحاء العالم العربي لهجات عربية يمكن ارجاع اغلب الفاظها وتعبيراتها الى الاستعمالات العربية القديمة التي تعتبر صحيحة . اما الفصحى فأهم ما تتصف به انها اللغة المشتركة التي تجمع العرب في الاقطار والاقاليم المختلفة ، كما انها تجمع العرب من ناحية الزمن كذلك ، فهي اللغة القريبة من لغة العرب في العصور القديمة التي كتب بها تراث ضخم يغني اللغة ويزيد ثروتها من الوان التعبير التي صيغت بها . ولا شك انه من الخير للغة ان يكثر المتكلمون بها ، كما انه من الخير للناس انفسهم ان تتوحد لغتهم وان تزول الخلافات بينهم ليتعاونوا على خيرهم اجمعين ، حتى اننا لنجد كثيرين ينضمون الى الدعوة الى لغة للعالم كله .

وفي هذا يقول الدكتور ابراهيم انيس في مقال بعنوان « لغة عالمية » بعد ان اشار الى مشكلة الاختلاف في الالوان التي دعت الى تعصب الانسان وكراهيته لاخيه الانسان بسبب اللون يقول :« وكذلك الشأن في اختلاف الالسنة واللغات حين نتذكر المآسي التي كانت في كل عصور التاريخ بسبب اختلاف اللغات من حروب وثورات ليس لها من سبب حقيقي سوى ان المجتمعات البشرية قد عجزت عن فهم بعضها البعض حين افتقدت وسيلة واحدة للتفاهم تنتظمهم جميعا ... فكم من مؤتمرات عالمية فشلت ولم تحقق هدفا لا لشيء سوى ان المجتمعين بها كانوا يصطنعون لغات متباينة ، او بعبارة اخرى يفكرون بعقليات متنافرة . ولا تزال للترجمة مشاكلها وزلاتها حتى في ارقى الاوساط العالمية كمنظمة الامم المتحدة . وصفحات التاريخ زاخرة بالمآسي التي مر بها الانسان بسبب اختلاف اللغات» (١٠) .

ومن قبل وضح الجاحظ في رسالة الرد على النصارى ان اختلاف اللغة وصعوبة الترجمة كانا السبب في الخلافات الدينية الكبيرة التي نشأت بين اهل الاديان المختلفة لان النصوص الدينية ترجمت ترجمة سيئة حرفت مفهوم النص الديني عند اهل الديانة الاخرى الذين يتكلمون لغة اخرى . فاذا كانت خطورة اختلاف اللغة قد وصلت الى هذا الحد من التأثير في حياة الانسان فلا غرابة ان تقوم الدعوة الى التمسك باللغة المشتركة الموحدة للعرب في كل انحاء العالم العربي .

ولكننا لا نستطيع ان نغض من قيمة الاحساس الفني باللغة الذي دفع الى محاولة ايجاد لغة للمسرحية قريبة من لغة الحياة اليومية ، تعرض لغة المسرح في حيوية تناسب لغة المجتمع . وقد احس الجاحظ بمثل هذه الحاجة حين قال في كتاب البيان والتبيين (١١) : «وكلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات ... ومتى سمعت ــ حفظك الله ــ بنادرة من كلام الاعراب ، فاياك ان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها ، فانك ان غيرتها بأن تلحن في أعرابها واخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب ، او تتخير لها لفظا حسنا ، او تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها، ومن الذي اريدت له ، ويذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها » . ويروي في كتاب الحيوان عن احدهم حديثا جاءت فيه عبارة « ان كنت سبع فاذهب مع السباع » . ويتبعه بقوله : « ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون ، من قولي « أن كنت سبع ولم اقل ان كنت سبعا ... ان الاعراب يفسد نوادر المولدين ، كما ان اللحن يفسد كلام الاعراب لان سامع ذلك الكلام انما اعجبته تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة وتلك العادة ، فان ادخلت على الامر ــ الذي أنما اضحك بسخفه وبعض كلام العجمة فيه ــ حروف الاعراب والتحقيق والتثقيل وحولته الى صورة الفاظ الاعراب الفصحاء ، واهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع أنقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » (١٢) .

ولكن الجاحظ لم يكتب ــ فيما نعرف ــ اي كتاب او مقال بالعامية وكل ما جاء عنده بعيدا عن الفصحى جمل قصيرة حكاها عن اصحابها العوام ، فمن كلام النوتي (الحمقى) مثلا قول نفيس غلام الجاحظ لغلام آخر له « الناس ويلك انت حياء كلهم اقل ! » ، يريد : « انت اقل الناس كلهم حياء » (١٣) . « وقلت لخادم لي : في اي صناعة اسلموا هذا الغلام ؟ قال في اصحاب سند نعال ». يريد : « اصحاب النعال السندية » (١٤) . وحكى عن شخصياته وانطقهم جميعا بالفصحى ، مع انه كما قال توفيق الحكيم بحق قد « نزل الى الشعب يستوحيه ويصور اسواقه ونجلاءه ، ولصوصه ، وتجاره ، وشرفاءه ، وخبثاءه ... في اسلوب بسيط حي ، يعد مثلا طيبا للنثر التصويري في عصور الحضارة والعمران » (١٥) .

على ان الاحساس بوجوب التقريب بين الفصحى والعامية ليس قاصرا على الجاحظ وتوفيق الحكيم ، ولكن تاريخه قديم . فيحدثنا العالم الجليل الاستاذ امين الخولي في بحث القاه في مؤتمر المجمع اللغوي بالقاهرة يوم ١٣ ــ ٣ ــ ٩٦٢ ونشره في مجلة الادب (العدد الثاني ، السنة السابعة ، مايو ١٩٦٢) ان ابا الحسن علي بن الحسن

الهنائي ... اللغوي ، من اهل مصر ، لقب «كراع النمل» لقصره او لدمامته الف كتاب « المنضد » سنة سبع او تسع وثلثمائة . وكتابه المنجد (كمعظم « المجرب ») الذي هو الاختصار الثاني لكتابه « المنضد » بعدما اختصره في « المجرد » ، وفي مقدمة المنجد هذا يقول : « هذا كتاب الفته فيما اجتمعت عليه الخاصة والعامة من الالفاظ » .

ويتحدث امين الخولي في المقال نفسه عن مجمع اللغة العربية في القاهرة فيقول : « وقد زاده التطور الاجتماعي والثقافي ثقة واملا ، فاطمئن الى ان التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وانه يزداد امكانا في العصر الحاضر » . ومما قاله موضحا تاريخ التاليف في الموضوع : «ان فكرة التقريب كانت في مصر نفسها ، منذ اكثر من سبعين سنة اوضح واقوى وابين طريقا واهدى سبيلا ... لقد طبع السيد وفا افندي محمد ، امين الكتبخانة الخديوية المصرية سنة ١٣١٠هـ ، بالمطبعة المصرية ببولاق مصر المحمية، مقدمة كتاب (التحفة الوفائية في اللغة العامية المصرية) واولها فصل في بيان الحاجة الى توحيد اللغة العربية والوسيلة النافعة لذلك . ويواصل الاستاذ الخولي حديثه قائلا « اسمعكم بعض ... ذلك الذي تجاوز التقريب الى التوحيد ، وتقدم من القول الى الفعل . فمن ذلك قوله : (ان وحدة اللغة تعد شرطا لوحدة الامة ...) ... ووسيلة هذا التوحيد الواجب عنده انه (لا يكون الا بتقويم اود العامية ، واصلاح فاسدها ... حيث انه بهذا الاصلاح لا يكون هناك فرق بين ما يدون في الكتب ، وما عليه عرف التخاطب العام ، ولا يبقى ادنى امتياز في مبادىء التعليم العمومية ، الا فيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة وذلك لا يضر باصل الغرض المطلوب ، متى صارت لغة التخاطب هي لغة التدوين ، اذ من التسهيل بعد ذلك ان يراعى في التاليف سهولة العبارة ، بحيث يستوي في فهمها العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس على اختلافهم . ويتابع الاستاذ الخولي حديثه عن صاحب التحفة الوفائية في اللغة المصرية فيقول « وباب التمهيد عنده لهذا المشروع الجليل اولا : انه يجب على كافة العلماء ، وكل من يقدرون على التكلم بالعربية مع مراعاة وجوهها المعتبرة ، في سائر الاقطار ، ان يغيروا خطة التخاطب بينهم بمراعاة وجوب الاعراب والاساليب الصحيحة ... الخ . ثانيا : انيتابعوا البحث والتنقيب في الفاظ العامية ، حتى يعرف العربي منها ، والدخيل من لغات اخرى ، فما كان منها لا يهمل استعماله بعد تصحيحه ... الخ » . ويقول الاستاذ الخولي ايضا عنه « وهو ينفذ فعلا فكرة البحث والتنقيب في الفاظ العامية رتقا لفتوقها ، ويضع كتابه الذي ادع له كذلك القول في وصفه ، وانه كما يقول – السيد وفا – بلفظه (شبه قاموس مرتب على حروف المعجم يشتمل على كثير من الفاظ العوام واساليب كلامهم ...) ... وقد ادى الامانة واتم الكتاب في جزءين من القطع الكبير ، عدد صفحاتهما ٣٤٠ صفحة ، واهداه مخطوطا لدار الكتب المصرية » .

وانهى الاستاذ الخولي مقاله باقتراحات له قال عنها : « واول ما ارجوه لكم من المواقف العملية ... هو : ١ – ثبات الايمان بفكرة التقريب بين لغة اللسان ولغة التكلم ... ٢ – ... توسيع مجرى التيار الذي رايناه في المعاونة بين لغة الحياة ولغة الكتاب ، وذلك يكون بالجد العامل في تتبع كتب اسلافنا المؤلفة في التصويب لقول العامة والظفر بها ونشرها بعد تحقيقها ... ٣ – ... ان ياخذ (المجمع) ما اخذه اسلافه المصوبة ، من النامية في الماضي البعيد او القريب ، من صحاح كلماتها ، وما في المعاجم والمراجع اللغوية من تلك الصحاح وما في السنة الناس الآن من ذلك ليصنع من ذلك كله معجما يسمى مثلا لسان العرب اليوم . يشتمل هذا المعجم الحي على ماعرف الناس واستعملوا ، ليعرف المعلمون صوابه فلا يسرفون في تخطئة المتعلمين ، وليرجع اليه المتعلمون اول ما يرجعون فيشعرون انهم يعيشون بلغتهم ولا يتعلمون مادة جديدة ولا لغة أجنبية ... واخرى اجل من ذلك واعظم هي ان يشتمل هذا المعجم على صحاح العاميات العربية المختلفة ... فيكون « معجم لسان العرب اليوم » وسيلة تقارب وتفاهم ... والفة بينهم » (١٦) .

واتبع هذا المقال في مجلة الادب بما يلي فيما يتعلق بموقف مجمع اللغة العربية بالقاهرة من الاقتراح « وقد جاء في التقرير الختامي لاعمال المؤتمر عن هذا الموضوع ما نصه : ... واعتقد انكم تتفقون جميعا على ذلك . ولا بد ان ترسم له الاجهزة الملائمة . على ان المجمع قد عنى بهذا من قبل في لجنتي اللهجات والحضارة ، وما اجدره ان يتابع السير » (١٧) .

على انه لا بد لنا ان نميز بين امرين منفصلين . الاول ، استعمال العامية كلغة كتابة للمسرحيات فقط او لها ولغيرها . والثاني ، التوسع في اسلوب الفصحى حتى يشمل ما قد يستعمله العامة في لهجاتهم .

اما الامر الاول فواضح ان عليه اعتراض وجيه – قد يكون الاتفاق عليه تاما بين الجادين ممن يعنيهم الامر – وهو انه يخلق لغة منفصلة في كل قطر من العالم العربي بل قد يخلق في القطر الواحد اكثر من لغة ، واعتقد ان الموجة الحضارية في عالمنا العربي وفي الدنيا كلها تدفع الى اتصال الناس بوسائل مختلفة ، وتدفع بالتالي الى تلاشي الفروق بين اللهجات والى الوحدة اللغوية . ولا شك ان اثر انتشار التعليم في كل الاوساط مساعد على ازالة الفروق اللغوية .

اما الامر الثاني فأحسب انه مسألة اسلوب ، وانه لا مانع على الاطلاق ان يختار الكاتب لمسرحيته او قصته او

اي نوع من كتابته ما يعتقد انه مناسب ، مما يستعمله العامة في اي مكان او ما استعمله الكتاب في اي عصر من العصور ، على شرط ان يكون ذلك موحدا بين العرب اجمعين فلا مانع ابدا من استعمال « ايمتا » و «النهار ده» و « امبارح » و « بس » بمعنى حسب و « تاتا » للطفل اذا مشى (١٨) . والشرط في ذلك كله الا يكون مستهجنا عند فريق من العرب ويدفعهم الى استعمال شيء آخر فتدب الفرقة بين لغة العرب في ناحية ولغتهم في ناحية اخرى . فاذا استعملت – مثلا – «أيه» و «ليه» و «كده» كما فعل الاستاذ الحكيم في مسرحية الورطة ، لانها مستعملة في اللهجة المصرية ، ولانه يمكن رؤية الصلة بينها وبين « أي هو » و « لاي هو » أو « لمه » و « كذا » . فمن الممكن في موضع آخر من العالم العربي ان يقترح استعمال «شو» و «لشو» و «هيك» لانها مستعملة في اللهجة اللبنانية ، ويمكن رؤية الصلة بينها وبين « أي شيء » و « لاي شيء » و « هكذا » . الاعتراض على ذلك هو الاعتراض على استعمال العامية تماما في ان ذلك سيفتت من اللغة المشتركة وهي الفصحى ، كما انه سيباعد بيننا وبين تراثنا العربي . وهنا احب ان اشير الى انه بجانب مراعاة الاشتراك في اللغة ، من الخير ايضا مراعاة التقارب ما امكن بين لغتنا واللغة التي تحمل تراثنا اللغوي عامة من تاريخي وادبي وفلسفي وعلمي ... الخ .

وعلى هذا فان تجربة توفيق الحكيم في « الصفقة » كانت اكثر توفيقا من تجربته في « الورطة » التي تحتوي على تعبيرات قد تؤخذ على انها مصرية بالذات ، فيحاول الآخرون ان يجدوا لها مقابلا في لهجاتهم ، فلا تكون تلك الوحدة اللغوية التي اشرنا الى ما لها من خطوة من قبل . ولا شك ان الكتابة للمسرح بالعربية الفصحى كسب لها واشاعة لاستعمالها . ولست ادري لماذا لا يكتب الاستاذ الحكيم للمسرح باللغة الفصحى وهو يعلم كما قال في مقدمته لمسرحية الورطة ونذكره هنا مرة اخرى : « انه كان من اثر حفاظنا على الفصحى في الادب والفن ايام الاحتلال ان استطعنا ايجاد نوع من التماسك بين الامم العربية جميعها على الرغم من خضوعها لقبضة الحكم العثماني والفرنسي والبريطاني ... وما كان احد يفصل يومئذ بين جنسية اديب وأديب . فقد كان شوقي ومطران والزهاوي وجبران ونعيمه ينتمون الى كل العرب . وما كان احد يفكر في جنسية احد » .

يبدو ان الاستاذ توفيق الحكيم يجد صعوبة في الحصول على من يمثلون مسرحياته بالعربية الفصحى . وهنا تكون المشكلة مشكلة ارادة واحساس بقيمة النهضة والوحدة اللغوية ، فما احسب ان اللغة عاجزة عن التعبير بل ان الكاتب ليكتب بها فعلا ، وما احسب ان الممثلين وهم من يتقنون اشياء كثيرة عاجزون عن اتقان العربية الفصحى حتى يكونوا ممثلين للعالم العربي كله لا لقطر واحد من اقطاره ، وحتى يكون الكاتب كاتبا للعالم العربي كله .

وقليل حقا ان يقترح الاستاذ توفيق الحكيم « ايمكن مثلا ان تخصص من بين مسارحنا العديدة القائمة التي غلبت عليها العامية ، مسرحا واحدا للتمثيل بالعربية الفصحى والمبسطة ، وان يكون مفتوحا لانتاج المؤلفين العرب جميعا من الخليج الى المحيط . انه اقتراح بسيط ولكنه قد يأتي بنتائج طيبة » . انه اقتراح بسيط حقا وفي رأينا انه يجب ان تكون الاغلبية من المسارح تمثل بالفصحى كما يحدث في كل انحاء العالم ، ولا داعي للتدرج بالامر من العربية المبسطة الى العربية الفصحى اذا كان الغرض هو التوحيد بين مزاج الامة العربية جمعاء ، وخاصة ان المسرح قد بدا بالفصحى ونجح في هذا التوحيد .

وقد اقترح الاستاذ توفيق الحكيم ان يضع كاتب الحوار بجواره « القاموس الوسيط » للمجمع اللغوي ، وانني لاقترح ان يكتب الحوار بالفصحى ، وان ينظر الكتاب في كتاب الاغاني ومعجم الادباء وتاريخ الطبري وكتب الجاحظ . ففي كل هذه نصوص طويلة من حكاية الحديث لا احسب ان كثيرين من الادباء عندنا يلتفتون اليها ويمنحونها ما تستحق من عناية . كما انني اقترح وهذا عمل الادباء والمهتمين بدراسة اللغة – ان تجمع نصوص الحوار من كبار كتاب العربية مثل الجاحظ والطبري وابي الفرج الاصفهاني وياقوت ، وتنشر هذه النصوص مع فهرسة لكلماتها ، ففي ذلك اشاعة للغة الحوار التي ستكون ولا شك مفيدة لكتاب الحوار اليوم ، واحسب اننا سنرى في مثل هذه اللغة قرابة من العامية كذلك وتصويرا للحياة اليومية .

ولا شك أن الفن بوسائله المختلفة التي تستعمل اللغة كالسينما والمسرح والاذاعة والتلفزيون اذا صدقت الارادة فيها على استعمال العربية الفصحى على اي صورة من الصور ، فان ذلك جدير ان يذيعها وان يقرب بين الفصحى والعامية ، فتتحقق امنية المجمع اللغوي وامنية توفيق الحكيم خاصة بان يزول « الوهم بوجود لغتين منفصلتين تقوم بينهما هوة سحيقة » لانه لن تكون هناك عند ذلك شبهة تدفع الى هذا الوهم . على ان الامر يتعلق كذلك بثقافتنا اللغوية عامة واحساسنا باللغة . وهذا يأتي اولا وقبل كل شيء عن طريق تعلم اللغة . وتدريس اللغة في عالمنا العربي يحتاج الى كثير من الجهد في التعرف على ما وصل اليه علم اللغة من تقدم لينتفع به في اعداد المدرس وتوجيهه واعداد الكتب واختيار نصوصها حتى نعد المواطن السوي اللغة (١٩) .

وكثيرا ما يبدو لي ان المشكلة اللغوية في العالم العربي مشكلة ارادة اكثر منها مشكلة اي شيء آخر .

محمد ابو الفرج

قصة

الجانب المشمس من الطريق

بقلم مصطفى ابو النصر

بدا لي كل شيء رمادي اللـون ، لا معنى له ، ولا قيمـة . كل ما هـو امامي متداخل حتى عجزت تماما عن ادراك الحقيقة ، اية حقيقة . ولكني مع ذلك حاولت ، لم اياس فـي اول الامر ، وانما تركت نفسي ملقى بشكل تلقائي . كنت اعتقد ان ذلك ربمـا انتهى بي الى قرار حاسم ، واكتشاف خطير ، الا انني وجدت حقيقة واحدة تطل علي من بين الجبال ، تضحـك في وجهي قائلة :

ـ انت .. من انت ؟

وقفت حائرا مشدوها ، وخائفا . اذ فجأة ، وجدت نفسي اقف عنـد حافة هاوية لانهائية ، مجهولة المصير ولما كنت اعتقد اني شجاع ـ ولـي مواقف كثيرة تدل على ذلك ـ فقـد سخرت في البداية ، والفيت نفسي لا اهتم ، بل لا اعير هذا الصوت ادنى انتباه ، وتشاغلت عنه باللعب فـوق الهاوية . كدت اسقط ، كان توازني قد اختل ، ولكن فجـاة ، احسست بيد ضخمة تجذبني الى اعلى ، كنت مضطربا فلم استطع ان ارفع بصري لارى صاحب اليد ، وعاودت السير بعيدا عن هذه الهاوية ، دون ان اظفر بمعرفة من هو الذي انقذني .

انفتحت بعد ذلك عيناي ، علـى جزء صغير من الحقيقة ، وقلما كنت اعرف شيئا عن نفسي او حقيقتها . وجدت انه من الحكمة ان ابدا مـن نفس النقطة التي يبدأ منها الآخرون . وكانت هذه النقطـة صغيرة وغـير واضحة ، حتى انني لم استطـع ان اعثر عليها ، ولكني كنت على ثقة من انها ـ على الاقل ـ في تلك الدائرة التي اقف بداخلها .

بدات السير ، كان الطريق وعرا ، وصعب المرتقى ، ولكني تحملت ، على امل ان اصل في النهاية الى الهدف الذي كنت قد رسمته في مخيلتي . وفي منتصف الطريق ، قابلتني امراة فاتنة ، وعلى وجهها مسحة من حزن قديم . وكنت مغرورا ، فقلت فـي نفسي : « لا بد ان الله قد وضعها في طريقي كي آخذ بيدها ، وامسح عن وجهها تلك الكآبة التي شابت جمالها » واذ وجدتني اقترب منهـا ، فقـد اتخذت لنفسها الحذر مني . قدرت ان ذلك ربما يكون نتيجة من سبقوني فأساءوا اليها . فابتعدت بخطـى واجفة ، محاولة ان تخلي لي الطريق حتى امضي دون ان اقف عنـدها . ولكني كنت شجاعا ، واثقا من انهاهي التي ابحث عنها ، امسكت بذراعها ، وجذبتها نحوي ، ندت عنها صرخة :

ـ آه .. انت ، ماذا تريد مني ؟

لم اعرف بماذا اجيبها ، ولكنـي ربت على كتفها :

ـ لا تخافي .. اني .. اني

ـ من انت ؟ وماذا تريد ؟

ـ انا .. انا لا اريد شيئا

ـ اذن دعني

ـ الا تأتي معي ؟

ـ قلت لك دعني

ـ لماذا انت حزينة ؟

ـ ......

ـ ساقص عليك حكاية مضحكة

خلصت نفسها مني قائلة :

ـ لا اريد ان اسمع شيئا .. ابتعد .. ابتعد عني .

ولكني بدات اقص عليها حكايات ، لست اذكر متى ولا اين سمعتها . واحسست ان حديثي لقي عنـدها استجابة لم القها عند احد من قبلها . ففكرت ان اصحبها معي في طريقي ، فقد خيل الي انني ساصل قريبا . ولكنها اعتذرت قائلة بصوت غريب ، نبراته لها وقع خاص :

ـ انني لا ابرح هذا المكان ، مـن يرد ان يعيش معي ، فعليه ان يمكث هنـــا .

*

عشت بجانبها فترة طويلـة مـن الزمن ، لا ادري مداها ، ولكني فجأة تنبهت الى الحال الذي صرت اليه ، كنت قد افلست تماما ، ولم اعد املك ما استطيع به ان اقاوم اي شيء على الاطلاق . وانطلقت ـ ولكن في نفس الدائرة ـ احاول ان اتخلص من افكار بدات تجول في راسي ، ولكني فـي النهاية ، وجدتني اقف كالمنبوذ منها ، وقد احسست انها قد اصبحت بعيدة عني بدرجة اصبحـت اخشى منهـا اقترابا . وفي ليلة حالكة الظـلام ، كانت ترقد بجانبي ، انفاسها تتصاعد في رتابة مميتة ، ففكرت ان اقتلها ان اتخلص منها ، لقد صارت بالنسبة لي مرضا ابغي التخلص منه ، وحين اقتربت يدي من رقبتها ، استيقظت وقبضت على معصمي وقد بدا الشر في عينيها ، وامرتني ان اغادرها في الحال . وحين التفت اليها وانا في الخارج ، لمحت ذلـك الاسى الـذي خدعتني به ذات مرة ، ولكني في هذه المرة ، كنت قد ادركت كل شيء ، فادرت وجهي بسرعة ، وبدات السير . ولكن ما ان اشرقت الشمس ، وبـدا النهار رائعا حتى وجدتني اقف على مقربة من الدائرة ، ودهشت كيف انني سرت كل هذا طوال الليل ، دون ان اقطع الا تلك المسافة الضئيلة من الطريق ، وكان التعب قد اخذ مني ، فلم استطع ان اواصل السير . وتحت شجرة حرداء ، القيـت بجسمي ، ورحـت في نوم عميق ثقيل . ولا ادري كم من الساعات مرت علي وانا في نومتي هذه ، ولكني حينما فتحت عيني ، كان الظلام قد انتشر في المكان



سر

* * *

ولي سر بأعماقي دفين ... تحاول ان تعرّيه العيون
فتحجبه الضلوع وراء ليل ... من الكتمان يغمره السكون
ويخفيه خفوق مستهام ... مخافة أن تجرّحه الظنون

حبيبي لن ابوح لغير ثغر ... جميل لا يبوح بما يبين
واهداب ترف جناح شوق ... ومروحة يلاح بها الفتون
وعيني عند عينيك ابتهال ... يهدهده التلهف والحنين
وليلي للهوى ارق لذيذ ... ودمعات تضيق بها الجفون !

حبيب العمر يا احلى حبيب ... يفوح له ويضفر ياسمين
ستبقى ما وراء البوح سرا ... به قلبي على الدنيا ضنين
تجمّل وجه ايامي وشعري . ... وغيرك ليس يدري من تكون !

فؤاد الخشن

كله ، واختفت تماما معالم الطريق . وخشيت ان انا واصلت السير ، ان اضل ، فآثرت ان ابقى جالسا عند الشجرة حتى النهار ، ولكن الغريب في الامر ان النهار لم يطلع بعد ذلك قط ، وكلما احسست بالملل بدأت اتلفت حولي ، علني ارى بصيصا من نور يهدي اي طريق . واذ مضى الزمن ثقيلا بطيئا لا معنى له ، فقد قررت أن اواصل السير ، دون ادنى التفات الى هذا الظلام ، فقد اخرج منه الى نور يبهر الابصار ، فقمت من فوري ، وبدأت المسير . كنت كلما رفعت قدما لانقلها الى الامام ، احسست بالخوف يتملكني وكأن شيئا ما يحذرني من المضي . ولكني كنت اقاوم ، وظللت اقاوم مدة لا ادري طولها ، حتى تصبب العرق من كل جسمي ، ووجدتني اسقط منهوكا منهارا .

توالت بعد ذلك كل تلك المحاولات ، دون ان اصل الى نتيجة ما ، وانما وجدت نفسي جائعا مشردا ، لا قيمة لي على الاطلاق . وكانت محاولاتي في الحقيقة لا تعني الا الخروج من ذلك الظلام الذي بدات اشعر به في داخلي ، نقد بدا كل شيء حولي باهر النور ، وانا المظلم الكئيب . وفكرت ان ابدأ من جديد ، ان اقف على اول الطريق ، واعاود السير ، ولكن جسمي كان قد هزل ، وعقلي قد جف ، واصابعي قد اصابها ارتعاش ، وثقل قد انتاب قدمي ، واني كلي قد صرت هلاما ثقيلا لا كيان له . وبالطبع ، لم يكن في مقدور احد ممن هم حولي ، وقد شاهدوني وانا اتحول من بشر الى هيكل لا شكل ولا قوام له ، الا ان يبتعدوا ، فقد ظن اغلبهم ، ان مرضا خبيثا قد اصابني .

بدا صوتي يخفت ، وعيناي تغوران في الجمجمة ، ونفسي يتقطع ، وشيء ما قد انقطع في داخلي ، وفي لحظة يقظة ـ يقظة ما قبل الموت ـ اردت ان اعاود السير ، وكنت احاول ان اقطع اكبر مسافة ممكنة في اقصر وقت وبكيفية رائعة ، ولكني .. ماذا؟ احسست بالتعب وبكياني كله يتحلل ، ومن بعيد سمعت صوتا يقول:.....

القاهرة **مصطفى ابو النصر**

الحطاب

اياه مشبوبة بضرام ... من لاعج الحرمان والاسقام
تلقاه كالانعام يضرب حائراً ... وجه الثرى في حيرة الانعام
وفؤاده كرة تقاذفها الاسى ... بيد الهوى وهواجس الاوهام
يمناه عالقة بساعد فأسه ... كالنسر انشب مخلباً بقطام
يطوي على الحرمان كفا خضبت ... اطرافها وبنانها بقتام
ضنت يد الحطاب بالفأس التي ... ادمت مفاصلها مع الايام
ورأت بها الستر الذي من دونه ... صين الاباء بسترة عن ذام
قد يستساغ المرء عند ضرورة ... ويحل غير محال بحسام

* * *

اهوى على الجزع العتيق بفأسه ... حنقا كاعصار بجنح ظلام
سطعت عقيقة فأسه لما هوت ... كعقيقة للبرق دون غمام
عصفت مجاجلة الرعود وجلجلت ... ما بين غمر للغمام وطام
من شامها الفى المنية رفرفت ... اعلامها للكسر والاقدام
مخرت سراياها كما مخر الدجى ... بقتامه في العارض المترامي
والجزع اسلس بالزمام لحاطب ... شأن الضحية اسلست بزمام
القت الى جزارها بذراعها ... كالمستغيث به لدفع حمام
وتطامنت من دونه وكأنها ... قد اوثقت من خوفها بلجام

* * *

راحت يد الحطاب تحطم ما ذوى ... من يابس حطم النزيف لجام
وهوت بفأس كالمنية سددت ... ضرباتها بمسدد الاحكام
تجتث كل ممرد من جزره ... فيخر كالمغلوب باستسلام
وترى الفروع على الثرى وكأنها ... نتف الخريف هوت بغير نظام
وجرت يد الحطاب تجرف سامقا ... كالبغي في عصف وفي اجرام
وكأن جائحة تهب رياحها ... في صدره مشبوبة بضرام
وبعينه للحزن يعصف قاتم ... من مدلهم للظلام جهام
سكت اللسان واعربت آهاته ... عما يكن الصدر من آلام

* * *

عاينته ولظى الهجير كعارض ... ينداح موارا على الآكام
فقرأت ما خط الاسى من اسطر ... في وجهه دون الجبين الدامي
زفراته ممزوجة بدموعه ... كالبرق ممتزج بصوب غمام
والارض من لفح السعير تثاءبت ... كحليف داء أو صريع مدام
الوت على مضض برأس ميتم ... واستسلمت لهواجس الاحلام
والصمت حلق ناشرا راياته ... كالليل حلق عاصفا بقتام

دمشق — **عدنان مردم بك**



الدكتور عبد السلام العجيلي

الاديب ماذا يكتب ، ولمن يكتب

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

« الاديب ماذا يكتب ولمن يكتب » سؤال له جوابان مختلفان باختلاف المجيب اذا كان مؤرخ ادب او اديبا . مؤرخ الادب الذي يدرس ويحصي وينقد يعطينا جوابا موضوعيا مبنيا على واقع الادب في عصر واحد او في كل العصور ، ويبصرنا بدوافع الادباء في انتاجهم ، ما كان منها ظاهرا وما بطن ، وما كان منها واعيا او متأثرا بعوامل لاشعورية قد تكون مجهولة من الاديب نفسه . ولا احسبكم تطمعون مني في ان اجيبكم على هذا السؤال جواب مؤرخ الادب ، فانا بعيد كل البعد عن انتحال هذه الصفة التي تتطلب في حاملها من التخصص ، ومن سعة الاطلاع والتمرس والصبر على الدراسة والتحقيق ، ما لم امتع به في يوم من الايام . بقي ان اجيب جواب الاديب ، وهذا ما جدثت به نفسي حين اقترح على التكلم في هذا الموضوع فقبلت عن طواعية . ولكني اريد ان اصارحكم يا مستمعي الاعزاء بامر قد ينفعني عندكم فيغطي على بعض عجزي وبعض اخطائي وبعض تقديراتي السيئة التي قد يتكشف لكم عنها هذا الحديث .

اريد ان اصارحكم باني حين بدأت تهيئة جوابي بهذا الشكل على هذا السؤال شعرت شعور الفتى ، الذي يظن انه فتى ، فيكتشف فجأة في نظرة ممعنة الى المرآة ان وجهه تخدد وان الشيب قد غزا سواد شعره . قلت لنفسي اني بقبولي التحدث في هذا الموضوع عن طواعية قد اقررت بنفسي اني اصبحت اديبا ، أعني انسانا له الحق في ان يتكلم عن الادباء وكأنه واحد منهم وعن الادب وكأنه من اهله ، وذلك امر طالما دفعته وتنصلت منه . قد يعجب كثير منكم ممن قرأ لي او سمعني او سمع بي مما اقول ، ويستغرب كيف ان امرا اصبح كالبديهي في نظر كل من يعرفني يبدو لي انا بمثل هذه الغرابة . ولكن شأني والادب شأن غير عادي . واسمحوا لي ان أتطرق الى هذا الشأن بكلمتين ، فانهما لن تبعدا عن الموضوع الذي نحن بصدده. لقد اتخذت الادب متعة مجردة منذ وعيته . ففي طور التلقي ، اعني في أيام الصبا والدرس ، كنت اقف امام لذاته موقف المنفعل . وحين استطعت أن اعبر عما في نفسي من خواطر بالاسلوب الادبي ظللت اجد الادب مصدر متعة ، وان تغير موقفي منه الى موقف الفاعل المعطي . اما مشاغلي التي كنت اسميها مشاغل جادة فكانت كل شيء غير الادب : كانت الدراسة العلمية ، والصراع مع المرض في اجساد المرضى ونفوسهم ، ومعاناة المشاكل الاجتماعية في بلدة صغيرة ، وحتى الزراعة والسياسة كانتا من بين تلك المشاغل . وحين كان يطلب مني ان اتحدث في الادب، او ان اشترك في مؤتمرات الادباء واجتماعاتهم التي يبدون فيها كنوعية خاصة من الناس ، كنت دوما امتنع واتخلف ، ثم اعتذر باني هاو ، واني اذا وجدت فائضا من الوقت فاني افضل ان اتمتع بالادب ، متلقيا ومعطيا ، على ان اتحدث فيه او عنه . كل هذا مر بي في سني حياتي التي غبرت ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة اني اتلفت ورائي الآن فأجد نيفا وعشرة كتب لي مطبوعة او على وشك ان تطبع ، واجدني قد كتبت وحاضرت واذعت اكثر من كثير بين المنصرفين الى الادب او من العاملين معه في الميادين المتصلة به . بل واجد اني اعرف بالادب الذي لم اتعمد الانتساب اليه اكثر بكثير مما يجب ان اعرف به ، كالطب مثلا . وفوق ذلك اجد انهذا الذي اردته متعة وتزجية وقت قد استأثر بالزبدة التي تبقت من كل ما اردته جدا وانتاجا مثمرا . واعني بالزبدة التجربة التي تحصلت من خوضي في نواحي الحياةالمختلفة وتمتعي بنعيمها ومكابدتي لشقائها. فالمرضى مئاتهم والافهم يجيئون الى عيادة الطبيب ويروحون ، والمواسم تأتي خيرة وسيئة ، وتملأ العواطف حنايا الصدر ثم تهمد او تتبدد ، ويجوب المسافر البحار والقفار ثم يعود ليلقي عصا التسيار ويلزم عقر داره ، وغبار معارك السياسة التي كانت تملأ السمع والبصر لا يلبث ان يتبدد بالعواصف الجديدة ... كل هذه تزول فلا يبقى منها الا ذكريات واحاسيس وافكار تثور في الوجدان وفي العقل وتطالب بحقها ان تبرز الى الوجود حروفا سوداء على طرس ابيض . وهكذا وجدت ان ادبي ، الذي ظننته لهوا زائلا ، قد اصبح قيمة ثابتة ، وزال او تضاءل كل ما عداه . لقد تمسكن الادب فتمكن ، وكان خادما مسخرا فاصبح سيدا متملكا . وهكذا ، يا

سيداتي وسادتي ، اجدني امامكم الآن ، لان لي رأيي فيما يقال في الادب وفيمن يقال لهم . اجدني متهيئا للحديث بصفتي اديبا ، مقرا بهذه الصفة على نفسي غير مستطيع التهرب منها او التنصل .

نعم ، انه لا مفر لي من ان اتكلم ، كأديب ، عماذا يكتب الاديب ولمن يكتب . وأن لي آرائي في هذا الموضوع ، كما قلت آنفا . وهي آراء قد لا تنطبق تمام الانطباق على ما يظنه الناس ، وعلى ما تقول به جمهرة الادباء بصورة خاصة. وحين اتأمل في هذه الآراء من زاويتي نظر مختلفتين اجد انها تبدو لي على طرفي نقيض من حيث مقاربتها للصواب او مجانبتها له . مرة ارى انها يجب ان تكون صائبة لانها احكام صادرة من ممارس للادب لم يقع تحت تأثير الظروف التي تغل يدي الاديب وتحول دون انطلاقه في التعبير عما يريد وبالصورة التي يريد . ومرة اخرى اجد انها لهذا السبب نفسه خاطئة ، او انها لا يمكن ان تفي بالحقيقة كاملة . فالشوق لا يعرفه الا من يكابده ولا يعرف الصبابة الا من يعانيها ... واني حين اتخذ الادب ملهاة ، وحين احاول ، ولو محاولة فاشلة ، التبرىء منه ، لا استطيع ان احكم عليه حكم من يأخذه امر جد ، او من يفخر بالانتساب اليه ، دعك من الذي يعتمد عليه وسيلة للعيش وينتزع اللقمة من شق القلم في معاناته . هكذا ترون اني وجدت، مقدما ، اعذاري للثغرات التي سترونها في آرائي من عجز او خطأ وتقدير سيء . ولكن كل هذا لا يحول بيني وبين التصريح بهذه الآراء ، ولا في تحمل مسؤولية ما لم يعجبكم منها تحملا كاملا .

لنبحث في البدء عن جواب الشطر الاول من السؤال ، موضوع حديثي اليكم في هذه الامسية : الاديب ماذا يكتب؟

الاديب فنان الكلمة . الا انه ليس الوحيد الذي يحتكرها فالخطيب والعاشق والسياسي ، وكثيرون غير هؤلاء يستخدم كلهم الكلمة ، ولكل منهم فنه في استخدامها . لنتأمل في فن السياسي في هذا الميدان ... يقول تاليران ان السياسيين اخترعوا الكلمات ليخفوا بها الاراء . هكذا قال الوزير الداهية الذي يتهم الساسة ، وهو على رأسهم، بانهم يستخدمون الكلمة لغير ما خلقت له ، للتغطية لا للافصاح وللتعمية لا للايضاح . وما اظنكم ترون ان هذه هي طريقة الاديب في الانتفاع من الكلمة . بل اني لو قلت بان طريقة الاديب هي الطريقة المناقضة للطريقة التي ينسبها تاليران الى رجال السياسة لوافقني كثير من الناس على قولي ، اذا لم يكن كلهم. فهل الكلمة عند الاديب الا الوسيلة التي بها يعبر عن رأيه ويصف احساسه ويصور ما يريد تصويره من عوالم واقعة او متخيلة؟ ولكني اقول مع ذلك اننا لو امعنا النظر في الذي يكتبه الاديب لاكتشفنا ان له ، للاديب اعني ، اسلوبه في استخدام الكلمة لغير ما خلقت له . صحيح انه ليس مثل السياسيين من مدرسة تاليران، يتعمد اخفاء آرائه بكلماته ، ولكن آراءه نفسها ، او ما يتحدث بالكلمات عنه من احساس او وصف وتصوير ، ما هو مكانها من الحقيقة في نفسه وفي العالم الذي يحيط به؟

يكتب الاديب الكثير من واقع ومتخيل باساليب شتى وبانماط مختلفة . ولكن كل ما يكتبه لا يخرج ، في حقيقته عن نوازع نفسه وعقله ... لا يخرج عن رغبات عاطفية او اماني فكرية قد تكون مدركة عنده او غير مدركة . ان ثقافة الاديب الفكرية . وبيئته الجغرافية والاجتماعية ، ومعرفته وتجاربه ، كلها عناصر ذات اهمية فيما يكتبه ولكن وظيفتها هي وظيفة الخيوط المختلفة الالوان والاحجام في النسيج الذي تنسجه موهبة الاديب . انها مواد اولية مسخرة للفكرة التي يريد بها الكاتب التعبير عما يكتب . وفي رأيي ان نوازع نفس الاديب وعقله ، التي اقول ان الاديب يكتبها، هي نوازع ذات اتجاه معين . انها تدعوه الى التكامل ، الى محاولة اتمام ما يحس بنقصه في الحياة والفكر ، او في ميدان النفس او في مجاهل الروح . واذا كان ثمة اختلاف بين اديب واديب فانه ليس اختلافا في ماهية البحث عن هذا التكامل ، بل في ميدانه ، او في اسلوبه .

هذا الذي اقوله قد يبدو غامضا ، وحين يزول غموضه قد يبدو جديدا ، وقد يبدو غير معقول . فاسمحوا لي بتفسير غموضه قبل كل شيء . نحن نعرف عظم طموح الانسان وكثر متطلباته ، ونعرف كذلك عجزه وتحدد امكانياته . والاديب بين الناس ، في اتصافه بسعة الخيال وولوعه بالجمال وبحثه عن الكمال ، اكثر الناس متطلبات في حين انه في الغالب من اضعفهم في الامكانيات . فماذا يفعل ؟ ان الغني يشتري تحقيق امنياته بالمال ، والمحارب يغتصبها بحد السيف . اما امنيات الاديب ، وهي في الغالب اندر من ان تشترى بالمال واعز من ان تكتسب بالسلاح ، فانه ، أعني الاديب ، يحققها بانه يكتبها . الى ماذا تنزع نفس الاديب وماذا يتطلب عقله ؟ ذلك يختلف باختلاف الادباء ، ولكنهم كلهم يسلكون الى تحقيق تلك النوازع وتلك الاماني طريقا واحدة ، هي طريق الابداع الفني . يشعر الاديب ، في فترة من فترات حياته ، بأن الكمال لا يبلغ الا في الشباب الدائم او في الجمال الذي لا يذبل . تلك الامنية كما قلت لا تشترى بالمال ولا تكتسب بالقسر ، غير ان الاديب يخلق بموهبته ما يقصر الواقع عن خلقه او ما لا تسمح بكينونته قوانين الكون السائدة . انه يخلق شباب فاوست الدائم كما فعل غوته ، او جمال دوريان غراي الذي لا تمحوه السنون التي تمر ولا الآثام التي تقترف كما فعل اوسكار وايلد . ويضيق شيخ اعمى بدنيا لم يذق فيها الا المرض والحرمان والوحدة فيتمنى لو انه استطاع اغراقها بطوفان او اجتثاث اهلها عن ظهر بسيطتهم . فماذا يفعل وهو النحيل الجسم الضعيف الحول الرهين في مجالس ثلاثة ؟ انه يحرق بنار لزومياته

* حديث القي في المركز الثقافي في مدينة اللاذقية مساء السبت في ٢٤ نيسان ١٩٦٥ .

هذه الدنيا التي يظلم فيها الرعية امراءهم اجراء ، ويدعى فيها الصلاح شيوخ مرأوءون ، وتخدع فيها النساء الرجال فما هي الا كما وصفها :

ولو كانت الدنيا من الانس لم تكن سوى مومس افنت بما ساء عمرها
تدين لمجدود وان بات غيره يهز لها بين الخطوب وسمرها

فلزوميات المعري ليست الا نوازع نفسه نظمها ليحقق بادبه ما هو عاجز عن تحقيقه بوسيلة اخرى . وكذلك كانت الكوميديا الالهية تحقيقا لما تمناه دانتي فلم يتحقق له ، اعني لقاء بياتريس التي لمحها لمحة على الجسر ثم ضاعت منه فانشأ كونا بجحيمه ونعيمه ومطهره كي يلقى فيه حبيبته . وماذا كان يمكن ان يكون ديوان المتنبي لولا نزوع نفسه الى المجد والسلطان ، نزوعا لم يتحقق له في الواقع ولكنه تحقق له في شخص سيف الدولة فاعطانا صورته الملحمية ، وافتقده في بلاط كافور فاعطانا صورته الناقمة والساخرة . . .

لقد اعطيت امثلة ضخمة للنوازع التي تحرك قلم الاديب فتجعله يكتب ما يشعر بانه ينقصه او ينقص العالم الذي يعيش فيه . وانا ازعم ان الاديب يكتب بتأثير هذه النوازع حتى الصور البسيطة التي يصفها ببيانه . فهو حين يصف وردة بعينها لا يقدم صورة الوردة كما تقدمها آلة فوتوغرافية وانما يصف الوردة التي يتمناها او يشتهيها ، والتي تعجز الطبيعة عن ابداعها بالشكل الذي يريده هو . الاديب لا يكتب الواقع مهما التزم الدقة في محاكاة ذلك الواقع . ذلك ان كتابة الواقع هي مهمة المؤرخ او كاتب الضبط ، اما الاديب فانه يتم ما عجز الواقع عن ان يتمه . ولذا قيل بان الفنان يكمل نقص الطبيعة .

ارجو ان يكون بعض الغموض قد تبدد عما اراه من ان الاديب يكتب نوازع نفسه وعقله الى الكمال فيما يريده ويتمناه . وحين اقول الكمال هنا ، فاني لا اعنيه بالمعنى الاخلاقي والا فما كان لي ان استشهد باوسكار وايلد كما اسلفت ، ولن يكون لي مثلا ان استشهد بأبي نواس او بايرون ، مثل استشهادي بالمعري او بتولستوي ، وهو ما استطيع أن افعله بكل ثقة . فالكمال الذي اعنيه قد يكون اخلاقيا او جماليا او يكون في ميادين اخرى لا تمت الى الاخلاقية او الى الجمالية بسبب . كنت طالب طب ،فكانت تمر بي في مشاهداتي في المستشفى وفي دراساتي النظرية حادثة او قضية يكتنفها الغموض او تثير الفضول ، فاتمنى او أكون الطبيب المعالج او الباحث الدارس كي استطيع ان استقصي او اتصرف او اعطي الراي القاطع والعلاج النافع ولكن كان ابعد ذلك مني وانا التلميذ الهزيل المعرفة الضعيف الامكانيات . حينذاك كان الاديب يتململ في اهابي ، كأنه يقول : انا لها ! ويخلق مني الطبيب ذا المعرفة التي لا تخطيء والذي يتصرف بثقة واطمئنان بحيوات الناس المتزاحمين في باب عيادته ، وذلك في قصة كنت استوحيها من تلك الحادثة او حول تلك القضية التي اثارت فضولي كدارس علم وكفنان . وهكذا كتبت قصص كتابي الاول « بنت الساحرة » التي كانت تدور على الاطباء والمرضى . هكذا كان حين كنت طالب طب . فلما اصبحت الطبيب الذي كنت اتمنى ان اكونه ، وازدحم المرضى بباب عيادتي، ونصبت ، بحق او بغير حق ، قيما على صحة اجسادهم ونفوسهم ، ماذا فعلت ؟ حين اشبعت نوازع نفسي في هذه الناحية من نواحيها ، فارقني الا قليلا ميلي الذي كان لي الى الكتابة عن الطب وناسه وقضاياه . لم انقطع عن الكتابة طبعا . ولكني ، في الوقت القليل الذي ابقاه لي عملي الطبي ، رحت انفرد بنفسي واكتب قصص الحب والغرام!

ذلك ان الواقع الكامل ، اذا وجد الكمال في واقع ، لا يغري الاديب ولا يستثير دوافعه الى الكتابة . كثير منا يعرف قصة الراعي الصغير واميرة البحر . راع صغير كان يحدث اترابه ، حين يؤوب كل مساء مع قطيعه ، بقصص يخترعها خياله عن اميرة البحر التي برزت اليه من الامواج وهو يرعى خرافه قريبا من الساحل ، فتحدثت اليه وسامرته وغازلته ثم غادرته الى مركبها من الزبد ضاربة في عرض المحيط . وفي ذات مساء ، بينما كان الراعي الصغير يركض وراء خروف شارد ، قبل ان يؤوب بقطيعه الى القرية ، ادهشته ان ارى موجة يأتلق النور حولها تتقدم اليه من الافق البعيد . وكانت على الموجة اميرة البحر بنفسها ، بوجهها الرائع الجمال وعينيها الخضراوين وشعرها الذهبي وثيابها المرصعة باللؤلؤ والمرجان . نزلت الاميرة من محارتها التي كانت تعتليها كزورق ، وخطت على رمال الشاطيء حتى تناولت الراعي الصبي فحدثته وضاحكته وقبلته ، ثم رجعت الى محارتها ، وامتطت موجتها عائدة الى الافق البعيد ، فلما آب الراعي الى القرية والتف حوله الاتراب يسألونه عن اميرة البحر وجدوه لا يجيب . لقد اصيب بالخرس ، فصمت الصمت الابدي اذ لم يعد لديه ما يتحدث عنه . اعني ما يأمله ويتمناه . . .

وهكذا الاديب . ولذا كان الادب الذي تثيره نوازع الاماني الى الكمال ، او الذي تحركه دوافع النقمة على النقص أكثر الاداب قوة واشدها تأثيرا ، اذا لم يكن هو الادب وحده . اما ادب الرضى فهو ادب مصطنع على الغالب ، ضعيف اسباب الحياة . وكمثال على ما اقول نرى ان اعظم كتاب روسيا ، هم الذين ، في نقمتهم على الاستعباد ايام القياصرة ، او في سبرهم اعماق النفوس الانسانية المتألمة في عالم لا عدالة فيه في تلك الايام ، دعوا الى الاشتراكية والعدل الاجتماعي الذي تحققه الاشتراكية، لا الذين عاشوا في ظل الاشتراكية ونظمها الخاصة فكان ادبهم تمجيدا لها . ذلك ان هؤلاء ، الا من عصمته موهبة ادبية خارقة ، ليسوا الا مطبلين مزمرين لنظام لو عاشوا في غيره لطبلوا كذلك له وزمروا . والتطبيل والتزمير كما نعلم جميعا انفعالات هوائية مصيرها الى خواء في الفضاء .

ونتساءل هنا : هل يدرك الاديب حقيقة هذا الدافع

الاساسي لما يكتبه ؟ الجواب : ليس دائما . ومن حسن حظ الادب ذلك . فان النوازع الى الكمال ، كما نسميها ، تفعل فعلها من وراء الف ستار وستار حين تملي على الاديب ما يكتبه . فنحن لا ننسى بان نصيب العفوية في الابداع الفني اكبر بكثير من نصيب التصميم والتخطيط . ولو عرف الاديب ان ما يكتبه ينم عن النقص الذي يتوق ، في اعماق نفسه ، الى استكماله لحور كثيرا فيما يكتب ،ولجانب ما يكتبه الصدق في نفسه . اعني لكان ادبه متكلفا . فالذي في اعماق نفس الاديب ليس دوما خيرا ، او على الاقل ، ليس دوما مما يدعو الاديب الى الفخر . وقد روى صاحب الاغاني ان عثمان بن عفان رضي الله عنه استنشد ابا زبيد الطائي بعض شعره . فانشده ابو زبيد قصيدته التي يقول فيهـــا :

من مبلغ قومنا النائين اذ شحطوا ان الفؤاد اليهم شيــق ولــع

ويصف فيها الاسد . فقال سيدنا عثمان : « تالله تفتأ تذكر الاسد ما حييت ، والله اني احسبك جبانا هدانا» .

ويقول احد الكتاب الفرنسيين : ان مصادر الهام الكاتب هي قضاياه المخجلة . وقد يقال ان هذه احكام لا تنطبق على كل الادباء . اما انا فأقول بان انطباقها على كل الادباء لا يكون بنفس الصورة . فعناصر المجون واحدة عند ابي نواس وعند ابن حجاج ، ولكن ابا نواس نزع الى الاوج في خمرياته ولم يسف حتى في غلمانياته ، بينما نزل ابن حجاج الى الحضيض في رقاعته وسخفه ، وكلاهما مع ذلك في ميدانه مبدع . واظن ان كثيرا من زملائي في الادب لــن يرضيهم ما اقوله بأن ما يكتبونه هو استكمال ، بالقلــم ، لنقص في نفوسهم او تعويض عما هم في حاجة اليه ، وان الحقيقة في الواقع كثيرا ما تكون نقيض ما يكتبونه لقرائهم . فنحن، بين كتاب قصة وشعراء ، قد ملأنا الدنيا ـ والاحرى ان نقول ملأنا صحائف كتبنا ـ بدونجوانياتنا ونرجسيتنا، فماذا يكون من امرنا حين يفطن قراؤنا ، ولا سيما قارئاتنا، بان كل انتصاراتنا على الورق كانت تعويضا لهزائمنا في الواقع ، او تحقيقا خياليا لاماني فشلنا في ادراكها فــي الحيـــاة ؟

قد اكون اجبت عن الشطر الاول من السؤال موضوع الحديث : الاديب ماذا يكتب ، جوابا غير متوقع اذا لم يكن غير مقنع . وقد يكون ما قلته هو التفسير الابدي،والبدائي، لكل جهد يبذله الانسان في حياته الدنيا هذه ، ايا كان ، واينما كان : انه يسعى لاستكمال ما ينقصه ، والتعويض عما فاته ، والتحقيق لما يتمناه . قال جندي روماني لجندي من المرتزقة الاسيويين الذين يحاربون مع جيش روما : لماذا تخاطر بنفسك وتحارب ؟ قال جندي المرتزقة : من اجـل المال ، وانت ؟ فصعر الجندي الروماني خده واجـاب : لست مثلك ... اني احارب من اجل الشرف . فضحك الاسيوي وقال : كل يحارب من اجل ما ينقصه ...

لقد عرفنا ماذا يكتب الاديب . فلمن تراه يكتب ؟ لاناتول فرانس كلمة في هذا القبيل يؤسفني اني لا استطيع ان استشهد بها امام كل الناس . ولكني اقول ان الابداع في كل الفنون ، ومنها الادب ، عنصر نفسي شخصي ، غير ان تفتحه وازدهاره لا يكونان اذا لم يكن هناك جمهور متلق ، مستحسن او متأثر . وحاجة الاديب الى جمهور يقراه أو يسمعه مثل حاجته الى التعبير عما يشعر به أو يفكر فيه بالكتابة . ونحن نعرف ، مما نقله الينا تاريخ الادب عنـد الامم المختلفة ، كم كلف الادباء ان لا يحتفظوا بانتاجهـم الادبي في صدورهم في المواقف الحرجـة او الخطرة .

وفي تاريخ الادب العربي وحده نعلم ، حين كان الشعر هو ادب العرب ، كم كلف بوح الشعراء للجمهور بنتاج قرائحهم أولئك الشعراء . فهذا طرفة ، شاعر يقول معلقته الرائعة وهو في مطلع شبابه ، يفقد حياته وهو لم يتعد السادسة والعشرين في ابيات تناقلها الركبان في هجاء ملك الحيرة . وهذا وضاح اليمن ، يشبب بزوجة الخليفة ولا يستطيع ان يحتفظ بتشبيبه لنفسه ، فيدفن حيا في بئر عميق . وهذا العرجي ، الشاعر القرشي ، يتغزل بجيداء فيقول :

عوجي علينا ربـة الهودج	**انـك ان لا تفعلي تحرجي**
اني اتيحـت لـي يمانيــة	**احدى بني الحارث من مذحج**
نلبـث حـولا كامـلا كلـه	**لا نلتقـي الا علـى منهـج**
في الحج ان حجت ، وماذا منى	**واهلـه ان هي لـم تحجج**

فيغني بابياته ابن سريج وتذهب كل مذهب ، وابن جيداء امير مكة حينذاك ، فيحبس العرجي في هذه الابيات تسع سنين ولا يخرج من الحبس الا ميتا . وهذا يزيد بن مفزع الحميري يبصر لحية اميره الضخمة وقد عبث بها الهواء ، والوقت شتاء والثلج قد غمر المراعي فجاعت خيول جيوش الغزاة فيقول بيته المشهور :

الا ليت اللحى كانت حشيشا فنطعمها خيـول المسلمينـا

فيجفوه الامير ويحبسه ويقيده مع هر وخنزيرة في قيد واحد ، ولا يخلص من القيد والاسار والتعذيب الا بعــد جهد شديد . اما دعبل بن علي الخزاعي فانه يصور احسن تصوير نفسية الاديب المتمرد الذي لا يتراجع امام المخاطر التي يعرضه اليها اصراره على ان يقول ويذيع ما يقول ، بجوابه المشهور لمن لامه على تعريض نفسه لنقمة الاقوياء في حملاته عليهم بشعره ، قال : انا احمل خشبتي علــى كتفي منذ خمسين سنة ، لست اجد احدا يصلبني عليها .

ما الذي دفع هؤلاء وامثالهم الى ان يستجلبوا علــى انفسهم النقمة ولها الاذى ، بالبوح بما نظموا وكتبوا امام من كانوا يعرفون انهم سينقلونه ويذيعونه ؟ لقد دفعهم الى ذلك ادراكهم العميق ان انتاجهــم الادبي بحاجة الى ان يتنفس بالجمهور الذي يطلع عليه . حقا ان الاديب يكتب من نفسه ويكتب دوافعه النفسية ، ولكنه يكتب لجمهوره. انه الجواب البسيط للشق الثاني من السؤال الذي نتحدث عنه . اقول الجواب البسيط ، ولكنه في الحقيقـة ليس بسيطا البساطة التي تتراءى من اول وهلة . هذا الجمهور من هو ؟ هل هو واحد لكل الادباء ؟ وهل هو واحد للاديب نفسه في كل اطوار حياته ؟ وهل يعرف كل اديب من هو

جمهوره ؟ اسئلة كثيرة تتشعب من ذلك الجواب البسيط ، ولا بد من ان نقف عند بعضها وقفة المتأمل المتمعن .

اذكر هنا كلمة لاستاذنا جان غولميه ، تعود الى نفسي كلما خطرت لي فكرة الجمهور الذي يتصوره الكاتب لنفسه. كنا طلابا في تجهيز حلب نهم باصدار مجلة مدرسية . فذهبت اليه اخبره الخبر واستشيره في ذلك . قال لي بلهجة الممازح : وهل تعتقد ان ما تكتبونه سيعيش وتنتفع به الاجيال الاتية ؟ كان ذلك استفهاما يحوي في باطنه ما يثبط همة المبتدىء ، الا انه في الوقت نفسه كان يحوى معنى حافزا على التجويد وعلى عدم القناعة بشيء وقتي القيمة ، وعلى ابداع ما يبقى للاجيال القادمة . ان فكرة الاثر الفني الدائم القيمة ، الخالد على الدهر ، كثيرا ما تساور الاديب ، ولا سيما في اول طموحه . كثيرا ما تكون احد دوافعه الى الانتاج ، كما انها كثيرا ما تكون عزاءه عن الخمول الذي يحيط باسمه لسبب او لآخر ، وعن الاعراض الذي يلقاه به معاصروه من قراء كتاباته .

الا ان الجمهور الاول والمباشر للاديب هو جمهور يخلق في وجدان الاديب قبل ان يوجد حقيقة حوله ، في الزمن الذي يعيشه او البيئة التي تحيط به . انه جمهور ذو صفات خاصة ، ابرزها ان يكون متمتعا بذكاء مماثل في نوعيته لذكاء الاديب بصورة يستطيع معها ان يفهم مرامي ادبه ومقاصده ، وان يدرك منها نواحي الجمال ومواطن الاجادة فيما يكتبه . ثم ان يكون هذا الجمهور في نفس الوقت ، ادنى من الاديب موهبة حتى يقر للاديب بالتفوق اذا لم يكن بالعبقرية . وكما قلت ، يخلق الاديب هذا الجمهور النموذجي في نفسه ، ثم يبحث عن مثل هذا النموذج في من حوله . وما من اديب الا وهو يتوجه ، في خاطره ، الى مثل هذا الجمهور الذي خلقه لنفسه يريد منه قراء ومستمعين ، ويريد منهم استحسانا او تأثرا او قبولا لما يقوله ويكتبه ، ولو كان ما يقوله ويكتبه حديثا بينه وبين ذاته أو بينه وبين انسان بعينه . ان اشعار مجنون ليلى نجوى نفس لذاتها او حديث محب لحبيبته ، الا ان قيسا لم يكن محبا فحسب ، بل كان اديبا يقرا قصائده على روايته في انتظار ان يذيعها هذا الراوية ، في البدو الحضر ، على كل الناس الذين هم جديرون بان يفهموا ما يقول قيس وان يعجبوا بما يقوله . وحين كتب المعري رسالة الغفران فابدع فيها ذلك الجزء الخيالي المشحون بروائع السخرية والمعرفة النفسية والتصوير الفني ، ما كان يقصد ان تكون رسالته مجرد جواب على رسالة ابن القارح ، فقد ابدع اثرا فنيا ليقرأه من هم ادق فهما واوسع ادراكا من ذلك الشيخ المسكين . وكذلك كان يفعل موليير ودستويفسكي وبالزاك ، وغير هؤلاء . قد يكتب واحدهم منصاعا لرغبة الامير او لسداد دين متراكم او استجابة لضغط الناشر ، ولكن نموذج الجمهور المثالي لا يبرح فكره ، فهو يكتب لذلك الجمهور وكأنه كائن حقا . فاذا ما صار الاثر الادبي حقيقة واقعة تكشفت للاديب حقيقة جمهوره ، ودخلت عوامل جديدة تحدد ذلك الجمهور او تصطفيه او تبدله تبديلا كليا .

والواقع انه قلما تتلاءم حقيقة الجمهور الذي يقرا للاديب في الحياة مع الصورة النموذجية التي يرسمها الاديب له في نفسه . ويختلف الانفعال الذي ينجم عن اكتشاف هذا التباين باختلاف الادباء . ومن هنا تصل الينا صور ، بعضها مؤس ، وبعضها مضحك ، لخيبة امل الاديب في جمهوره . فاذا ما حز في نفس الاديب ان لا يجد من يفهمه تراه يقول كما قال الصافي النجفي :

انا في الشعر كالغريب ، فجيلي — في عكاظ او بعد ذا العصر جيلي

او كما قال ابو العلاء :

بني زمني هل تعلمون سرائرا — علمت ولكني بها غير بائح
سريتم على غيي فهلا اهتديتم — بما خبرتكم صافيات القرائح
وصاح بكم داعي الضلال فما لكم — أجبتم على ما خيلت كل صائح

او تراه يفعل كما فعل كلثوم بن عمرو العتابي ، وهو الشاعر الذي قال عنه يحي بن خالد البرمكي لابنائه : ان قدرتم ان تكتبوا انفاس كلثوم بن عمرو العتابي فافعلوا ، فان تروا ابدا مثله . يقول الرواة ان احد اصحاب العتابي رآه يأكل خبزا على الطريق بباب الشام ، فقال له : ويحك اما تستحي ان تأكل امام الناس ؟ فقال العتابي : ارايت لو كنت في دار فيها بقرة اكنت تستحي ان تأكل وهي تراك ؟ قال صاحبه : لا . قال العتابي : فاصبر حتى اعلمك انهم بقر . ووقف بجانب جدار هناك فاخذ يعظ ثم يقص القصص ثم يروي الاحاديث الدينية ويدعو حتى اجتمع عليه خلق كثير واشتد الزحام . حينئذ قال للناس حوله : روى لنا غير واحد انه من اخرج لسانه فبلغ به ارنبة انفه لم يدخل النار . فما بقي واحد من الجمهور الا واخرج لسانه يومىء به نحو ارنبة انفه ليرى هل يبلغها ام لا . فالتفت العتابي الى صاحبه واشار الى ذلك الجمع الذي يحرك افراده السنتهم تحت انوفهم كما تفعل الثيران وقال: الم اخبرك انهم بقر !

على اننا نعرف أن المسؤولية في خمول الاديب وتجاهل الجمهور له لا تقع دوما على الجمهور . فان كثيرا من مدعي الادب يستررون ، وراء اتهامهم الجمهور بقلة الوعي ، قصورهم هم وضعف موهبتهم . كما ان تجاوب الجمهور مع اديب لا يعني دوما ان ادبه ذو قيمة كبيرة . فقد يكون التجاوب هذا مفتعلا ، تجاوبا للاديب مع الجمهور لا تجاوبا للجمهور مع الاديب . بمعنى أن الاديب يكيف ادبه بشكل يتلاءم والقيم الرائجة عند جمهوره . فمثل هذا الاديب لا يكتب ادبا بل يبيع بضاعة في السوق . والى هذا مرد الرواج الذي يلقاه ادب يداعب غرائز المراهقين في الشعوب التي تقع النسبة الكبيرة من قرائها في سن المراهقة مراهقة عمر او مراهقة نفس . وكذلك رواج الادب الذي يتحدث عن آراء اجتماعية او سياسية معينة في البلاد التي لا يسمح ان يعرض في سوقها الفكري غير تلك الآراء . وماذا

انا ما جفوت

للناس في درب الحياة اذا مشوا — نهجان : معتدل وآخر أعوج
الله يشهد والمروءة انني — ما سرت يوما ظالعا أتعرج
أنا من عرفت وقد بلوت سريرتي : — خلق كما تهوى ، وقلب ابلج
هل كنت الا السيف حين تهزني — هل كنت الا النجم ليلة تدلج
يأبى لي الخلق الرفيع تحولا — عن منهج الحسنى ، ونعم المنهج
لي مقول في الحق ليس ملجلجا — غيري يجمجم تارة ويلجلج ...
أنا ما جفوت ، وانما اندثر الشذا — والياسمين طغى عليه العوسج
وتر اجش ، ومهجة مقروحة — وهوى يئن ، وعبرة تتدحرج

لندن

سعيد العيسى

من « العروة الوثقى »

ينتظر من رواج او ازدهار للادب الصادق اذا انعدم النضج او فقدت الحرية ؟

غير ان خيبة امل الاديب في جمهوره لا تثبط همة الاديب الحق ، وان احس منها المرارة او لاقى فيها العنت ، بل لعلها احد حوافزه على الابداع . فالتمرد على الواقع ، وعدم القناعة به ، والطموح الى ما هو افضل هي من خصائص الاديب الصادق الذي يسعى بادبه الى التأثير في الجمهور وتغييره بدلا من ان يتغير هو بالجمهور . وقد اتهم الادباء الكبار ، حتى من لقي منهم مجدا في حياته ، جمهورهم بالتخلف وعدم الادراك . يقول بودلير : ان الجمهور ساعة كثيرة التأخير بالنسبة للعبقرية . ويقول اوسكار وايلد : الجمهور كثير التسامح ، الا مع العباقرة ، ويقول المتنبي :

اذم الى هذا الزمان اهيله — فاعلمهم فدم واحزمهم وغد

ولكن ذلك لم يحل بين هؤلاء الادباء الكبار وبين ان يكتبوا للجمهور الذي لم يكونوا يؤمنون به ، بل أن الاديب قد يتحدى جمهوره فيبدع في ما لقي فيه الاذى من ذلك الجمهور . وموقف ابي حيان التوحيدي في هذا المجال مثال ناطق . فهذا اديب بائس يعانده الحظ ، ويضطهده الامراء الذين يسعى لاستجلاب رضاهم ، وينصرف عنه الاصحاب ، ويخونه الاصدقاء ، فخرج من كل هذا بكتاب ضخم في الموضوع الذي اكتوى بناره ، واعني كتابه في الصداقة والصديق . وعزاء هؤلاء الادباء الكبار هو في ان اجيالا قادمة ستأتي وتكون اكثر ادراكا واكثر انصافا . قد تأتي هذه الاجيال او لا تأتي . وقد ينصف في زمن تال الاديب الذي انكره الجيل الذي عاش بين ظهرانيه ، وقد لا ينصف . ولكن هذه الفكرة ، فكرة المستقبل المنصف ، نعمة من نعم الله على الادب ، وعلى الادباء ، هؤلاء الذين يرون انفسهم صفوة الخلق وقادة العالم بينما يقصر العالم في امرهم حتى ليصنفهم احيانا بين الكسالى او الفاشلين او مرضى النفوس . ولعل لسان حال الادباء ، حين تذكر آمالهم في الاجيال القادمة الواعية والمنصفة ، يردد قول الشاعر القديم :

مني ان تكن حقا تكن احسن المنى — والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

احسبني قد اطلت في الكلام عن الاديب ماذا يكتب ولمن يكتب ، ومع ذلك فان للحديث وجوها كثيرة تجنبت التطرق اليها لئلا اثقل عليكم باكثر مما فعلت . فارجو ان لا يؤخذ علي اني لم اكن في كلامي محيطا بكل ما يجب ان يحاط به. لقد تكلمت كاديب مارس الكتابة فكتب ما بنفسه وما تتوق نفسه الى ان يكون . وكتبت لجمهور احبه ، وان وجدته احيانا قليل الادراك ، أو قليل الاحتفال بما يجب ان يحتفل به ، او ظالما . ولكن كل اديب ليس لنا . بل لعلي نفسي لم اكن ذلك الاديب في كل احيان ممارستي للادب . ولعل هناك من الاجوبة على السؤال المطروح بقدر ما هناك من ادباء . فما نحن والحقيقة المكلفة الا كأولئك العميان والفيل الذي وصفه كل منهم بصفة العضو الذي امسكت به يده من الحيوان : كلنا صادق ، وما منا من ادرك الحقيقة كاملة. وانا اذا استطعت ان اشرح لكم جزءا ، ولو كان ضئيلا من هذه الحقيقة ، فاني ارجو ان لا اكون اضعت من وقتكم وحملتكم هذا العناء للاشيء . ومهما يكن فأنا الكاسب اذ اني قد وجدت سوقا عرضت فيها ارائي ، ثم اني ظفرت بكم كمستمعين في هذه البلدة العزيزة التي اعجبت منذ زمن بعيد بعلو كعب ابنائها في الثقافة وتعلق ناشئتها بالادب وتقت دوما الى لقاء بمثقفيها على الصعيد الشخصي ولطالما جمعتنا على الصعيد المعنوي الصحف والاقلام .

الرقة ـ سورية — **عبد السلام العجيلي**

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

بقي علينا قبل الدخول في بحث الوجودية نفسها ان نبحث بايجاز في فلسفة « هيكل » الالماني التي كان لها اكبر الاثر في ايجاد الفكرة الوجودية بسبب رد الفعل ضدها ، ثم في بعض الحركات الفكرية التحريرية التي وجهت الانسان الى الاهتمام بنفسه دون الاهتمام بافكار معنوية مجردة او بمبادىء تباعد بينه وبين نفسه . وليس من السهل ، كما لا يخفى على الذين لهم المام بالفلسفة ، على المرء ان يشرح فلسفة هيكل شرحا وافيا وسهلا في الوقت نفسه ، لان هذا الفيلسوف لما اراد هو شرح فلسفته شعر بالحرج لانه وجد أن مفردات اللغة الالمانية لم تكن وافية بالغرض للتعبير عما يخالجه من افكار وما يعتمل في عقله من مبادىء فلسفية ، وهذا هو السبب في ان الكثيرين ، ومنهم شوبنهور ، نعوا على « هيكل » طمطمائيته في التعبير وعجمته في التفسير ، ولذلك فسنقتصر هنا على موجز لهذه الفلسفة ليكون مقدمة لبحثنا فيما بعد في الخطوات الاخرى التي ادت الى الوجودية .

وجد هيكل من دراساته للفلسفة القديمة والفلاسفة الذين سبقوه ان هؤلاء اهتموا بالعلة ولم يهتموا بالتعليل الاساسي . فلو وضعت ماء على نار ورايت الماء يغلي ، فقد تكون العلة في الغليان هي النار ، ولكن هذه العلة ليست التعليل الاساسي وليس الغليان نتيجة منطقية لوضع النار تحت الماء . وقد نرى الزيت يحترق والثلج يذوب والماء يغلي ، ولكن هذه الحوادث تقف عند هذا الحد ونقف نحن عندها بدون ان نستطيع استنتاج شيء عن حقيقة هذا العالم ، هل هو مؤلف من حوادث منفصلة لهذه الحوادث ، او من ذرات ، او من احساسات مفردة ، او من افكار بسيطة ؟ حتى اننا لو توصلنا في ايجاد العلل الواحدة بعد الاخرى الى ان نصل الى العلة الاولى ، فاننا هناك نحتاج ايضا الى تعليل هذه العلة وهكذا ، ام ان العالم عبارة عن حقيقة واحدة ومنها تتشعب المظاهر التي نشعر بها ، كما تتشعب الافراد من الانواع وتتشعب الانواع من الاجناس في خلقة واحدة شاملة ، او كما قال « سبينوزا » بان العالم حقيقة واحدة والموجودات في هذا العالم عبارة عن صور منسوخة عن تلك الحقيقة . فقد كان هذا الفيلسوف يعتقد ان العالم مادة واحدة سماها الله ، ولها صفات لا عدد لها ، ولكن الذي نعرفه من هذه الصفات العديدة صفتان : الفكر والامتداد ، وكل ما عدا ذلك خارج عن نطاق الاستطاعة العقلية .

اما «هيكل» فانه لم يقبل بنظرية سبينوزا بان الانسان لا يستطيع الوصول الى الحقائق بعد حد ما ، وقال ان العقل قادر على اكثر من ذلك ولا يقبل تحديدا . وقال ان المادة التي هي قوام العالم هي عقلية محضة ، وتتألف من الفكر ولا شيء غير الفكر ، وتقوم على نوعين من الفكر :حسي وغير حسي ، ولكن العالم لا يتألف الا من هذه الفكر ، ولا يتألف من اي شيء آخر . وبما ان الافكار تسير سيرا منطقيا فالعالم اذن لا بد ان يكون نتيجة منطقية ، كما تكون النتيجة المنطقية من المفروضات ، وان ما نجده في هذا العالم وما يجري فيه يسير على نظام جدلي منطقي . ولكن كيف جاز لهيكل ان يقول بوجود هذه الفكر ؟ وعلى اي شيء اعتمد في هذا القول ؟ فاننا اذا قلنا ان الحواس تخدع الشخص وتريه غير الحقيقة ، فهل يجب ان نعتمد على العقل المجرد وحده لمعرفة الحقيقة ، كما هو راي الذين يدينون بمذهب تحكيم العقل في الفلسفة Rationalism واذا كانت المظاهر هي كل شيء في هذا الوجود ، فيجب علينا اذن اما ان نقلع عن البحث عن الحقيقة الصرفة لان هذا على راي «كانت» متعذر، واما انكتفي بهذه المظاهر. وهنا لا بد من معرفة قولنا ان شيئا موجود . فما هو هذا الوجود ؟ يقول هيكل بوجود عالمين : عالم الظاهر وعالم الحقيقة . فعالم الاشياء المحسوسة كالاحجار والبيوت والكتب والكراسي والنجوم هو عالم الوجود او عالم الموجودات ، وعالم الرياضي والمنطقي والرموز والمعاني المجردة لا يعتبر عالما وجوديا بمثل العالم الآخر . ولكن بعض الافكار الرياضية كالصفر او اللانهائية مثلا يمكن استعمالها عمليا في عالم المحسوسات الموجودة في الهندسة وغيرها ، فهي اذن يمكن نقلها من عالم الى عالم ، ولكنها غير موجودة بمثل وجود الكرسي او الكتاب مثلا ، وانما وجودها يكون عن طريق (الكينونة) . وهي حقيقية ، ولولا ذلك لما امكن تطبيقها في الاعمال الدنيوية الموجودة . فالكينونة والحقيقة كلمتان تختلفان في المعنى .

ولا يكون الشيء حقيقيا الا اذا كان كليا ، فالحمرة المحسوسة هي احدى الكليات ، وهي ليست جزئية بمعنى انها شيء أحمر ، بل هي الجامع بين جميع الاشياء الحمراء فالحمرة اذن معنى تجريدي كلي يشمل جميع الاشياء التي لها صفة الحمرة . وقد نمعن قليلا في التجريد المعنوي فنقول ان الحمرة والخضرة والسواد والبياض مثلا يجمع بينها شيء غير محسوس وهو (اللون) . فاللون ينتمي الى عالم الكينونة الصرفة ، ولكنه حقيقي ولا يعتمد في كيانه على حالة معينة من الحالات المحسوسة . وبما ان الشيء لا يكون حقيقيا الا اذا كان كليا ، فان الحجر مثلا لا يكون

حقيقيا في راي هيكل ، كغيره من الالوان مثلا او العالم المتغير ، فان هذه اشياء غير حقيقية ولكنها موجودة . فالوجود اذن في رايه طور ينشأ من الكينونة ، او ينتقل من الحقيقة الغير المحسوسة الى موجودات محسوسة ، او من عالم الروح والفكر الى عالم الدنيا ، كما يجري مثلا في تقمص بعض الآلهة في اجسام بشرية . ومتى تآلفت الكليات وتجمعت نتج عن ذلك موجود من الموجودات ، فالحجر هو عبارة عن مجموعة من الكليات تألفت وتجمعت ثم تقمصت في هذا الموجود الذي نسميه حجرا . وهذا التآلف او التجمع لا يكون اعتباطا ، بل يقوم على اساس جدلي منطقي، كما سنرى . ولكن اين توجد الكليات التي تتألف منها الاشياء ؟ هذا غير معروف . فهي لا توجد في مكان ولا في زمان . ولكنها عبارة عن افكار ، وهذه الافكار متى تآلفت على صورة من الصور احدثت موجودا من الموجودات ، ويكون تألفها عند البزوغ الى عالم الوجود على اساس منطقي وحكمة وغاية وليس على العمياء . فاذا تمكنا من معرفة هذا الاساس المنطقي توصلنا به الى معرفة العلة التي ما بعدها علة ، واصبح في مقدورنا تعليل الحوادث والتغير في هذا العالم ، كما لو كنا نعلل او نفسر انتقال النبات من البذرة الى الزهرة او من الشتلة الى الثمرة . ويدعي « هيكل » انه وجد هذا الاساس المنطقي وهو الذي يسميه بالجدلية Dialectic .

ونشرح الآن شيئا من هذه الجدلية . فهو يقول ان ابسط الافكار المجردة هو الكينونة، ومن هنا تكون البداية . ولكن الكينونة هي لا شيء ، لانها مجرد فكر ليس لها تحديد ولا تقييد ، ففكرة الكينونة تعطينا فكرة العدم ، وهما فكرتان متنافيتان ولكنهما شيء واحد . ومن التنافي والتطابق معا تحدث (الصيرورة) . فالحد الاول هو (الكينونة) والحد الثاني (العدم) ومن تفاعل هذين الحدين يحدث الحد الثالث وهو (الصيرورة) . وقد راينا ان الحد الاول وهو الكينونة لا يتنافى مع العدم ، ولكنه يناقضه، ومن هذه المناقضة او المنافاة يحصل شيء جديد لا هو بالكينونة ولا هو بالعدم . وهذا اساس الجدلية . فالحد الاول هو ما يسمى بـ Thesis والحد الثاني نقيضه هو ما يسمى بـ Antithesis ، ثم يعد الحد الثالث من تفاعل الحدين ومن التوفيق بينهما ويسمى بـ Synthesis . فالحد الاول ينتفي بالحد الثاني ، ومن نفي النفي يأتي الحد الثالث . والمهم في الامر ان فلسفة « هيكل » مبنية على اساس التوفيق بين المتنافيات ، ويرى ان كل وضع فيه ما ينافيه ويضاده ، حتى اذا اشتد هذا التنافي تولد وضع جديد ، وهذه هي الفكرة التي تمسك بها «ماركس» وسماها بالجدلية المادية . وقد استعمل « هيكل » الجدلية في تعليل الطبيعة والتاريخ والدين والاخلاق والفن وغير ذلك. ومن ذلك مثلا انه جعل التاريخ في جميع ادواره خاضعا في تطوراته لقوة خفية تسيره . وقال ان جميع الاديان تؤدي بفضل الجدلية الى الديانة المسيحية ، ولكنه استثنى الاسلام من بحثه . وعلى هذا الاسلوب بحث في نشوء الدولة وقال ان الدولة تترقى في مصيرها الى الملكية البروسية ، وهي فكرة مثالية خامرت نفوس الالمان في القرن التاسع عشر وحملتهم على تقديس الدولة واعطاء صاحب الدولة اكبر قسط من الاستئثار بالسلطة والاستبداد بها . هذه الاوضاع العالمية تنشأ عن تمخض الفكرة المطلقة التي جعلها « هيكل » شاملة للحقيقة جميعها .

وبعد « هيكل » انقسم اتباعه الى جناح يميني وجناح يساري ، وكان اكبر مثال على هذا الانقسام ظهور «ماركس» وظهور الفلسفة الماركسية . فان « هيكل » بنى فلسفته على الروح والاشياء الغيبية ، في حين ان ماركس استبدل الروح والغيبيات بالمادة ، وتمكن مع صديقه « انكلز » من استحداث الجدلية المادية التي تطورت فيما بعد على ايدي « لينين » وغيره من الفلاسفة الماركسيين . ولم يكن انسلاخ ماركس عن هيكل محصورا في هذه النقطة ، بل امتد ايضا الى انتقاد « هيكل » بانه جعل الانسان لعبة في ايدي الاقدار التي تصورها ، ولم يجعل للانسان كيانا في هذا العالم وحرمه من شخصيته ، كما حرمت الراسمالية العامل من كينونته وجعلته قطعة آلية مسيرة وسلخته عن نفسه وعن صفته الانسانية . وهذه النقمة التي اعرب عنها « ماركس » وحمل بها على « هيكل » شبيهة من جهة اخرى بالنقمة التي اعرب عنها الكاتب الدانيماركي « كيركيفور » . والفرق بين النقمتين ان « ماركس » اتخذ جدلية هيكل واتجه بها الى الخارج ليستعملها في تأويل حوادث التاريخ في حين ان « كيركيفور » اتجه بها الى الداخل لفحص نفسيته وادت بها الى فلسفة انفعالية شخصية غمسته في غمرة من اليأس والتشاؤم ، وكانت هذه الفلسفة بواسطة « هسرل » اساسا لفلسفته الوجودية التي يؤمن بها في الوقت الحاضر كثيرون حتى رجال من الدين الكاثوليكي وغيره امثال « بارث » و « تلتش » و « بلطمان » و «تيودور هاكر » من قبلهم . ولم يكن « كيركيفور » كاثوليكيا ، بل كان من والدين لوثريين ، وكان يحاول التوفيق بين نفسه والمسيحية ، وانتهى به الامر الى مهاجمة الكنيسة . ومن اشهر ارائه في هذا المضمار انه كان يرى في بعض الحوادث المذكورة في الكتب الدينية تناقضا ظاهريا ، فاذا استعمل الانسان عقله انكر هذه الحوادث واعتبرها غير معقولة ، واذا تخلى عن عقله فليس له الا الايمان بهذه الاشياء كما هي . ومن ذلك مثلا حادثة ابراهيم مع اسحاق ، حينما امر ابراهيم ان يذبح ابنه ، فهذه الحادثة في راي كيركيغور مخالفة للعقل السليم ، ولكن اذعان ابراهيم للامر مثال اسمى للايمان . ففي اشد مواقف هذه الازمة ، وعلى الرغم من حب الاب لابنه ، فقد اطاع ابراهيم الامر ، وكاد

أن ينقذه لولا أن الله خلصه من ذلك بلطفه . ويتكلم « كيركيغور » عن حوادث دينية اخرى لا مجال لذكرها الان . ومن اشهر ارائه ايضا ، وقد أشرنا اليها سابقا ، ان الحقيقة هي في الشخص المؤمن بها وليست في الشيء المؤمن به .

وقبل ان ندخل في تفصيل هذا البحث عن آراء كيركيغور وعن تحمسه للفكرة الوجدانية الخاصة بالانسان ، نريد أن نشرح باختصار كيف ان الانسان كان يسعى منذ زمان الى التخلص من عوامل المحيط التي كانت تبعده عن نفسه وتحدث فيه تجافيا عن كيانه الشخصي . وقد سبق لنا ان فصلنا شيئا من ذلك عند الكلام عن الانسلاخ والتجافي. ولكن الحركات التي ادت الى الوجودية هي الحركات الداعية الى تثبيت موجودية الانسان ضد الجماعية ، سواء كانت الجماعية دينية كما كان في الغرب تحت سلطة الكنيسة او زمنية كما كان في عهد الاقطاع . وأعطاء الفرد الحرية التامة قد يؤدي الى انفراط عقد المجتمع ، ولكن اعطاءه الحرية الى حد ما مع ابقائه مشتركا في ذلك المجتمع هو الذي حصل في الغرب وآل اليه التطور الاجتماعي . ومن اهم الحركات التي أدت الى هذا التوفيق بين الطرفين هي الحركة الرومانطيقية . فان الذي تشدد عليه هذه الحركة هو ان كل انسان مخلوق على حدة ومختلف عن غيره ووحيد في ذاته ، وليس انه مخلوق كغيره من الناس على غرار واحد وعلى شبه واحد ، كما كان يظن في القرون الوسطى . واهم مظاهر الرومانطيقية هي الانطلاق الفردي، والثورة على المجتمع ، والتحرر من القواعد والقيود والتقاليد . وهذا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، او قبل الثامن عشر ايضا. والفرق بين الحركة الرومانطيقية وحركة الفلاسفة في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية ان الفلاسفة ، مثل « روسو » في كتابه « اميل » يرى ان الانسان في اول امره يشاهد اولا الجزئيات البسيطة ثم يركب من هذه الجزئيات مفهومات جديدة معقدة. فهم اذن يؤمنون بالتحليل والحكم المنطقي، في حين ان الرومانطيقيين يعتقدون ان التحليل قاتل للصورة وللخيال ، وانه يجب ان يترك للمرء ان يعبر عن عواطفه كما يريد ، وان يترك العقل في نوم موقت . وهم في ذلك يتصورون الولد البريء كيف يرقب الطبيعة ويرى اجزاءها فتغمر نفسه البهجة والاعجاب ، بدون ان يلجأ الى التفكير او التحليل الذي من شأنه ان يهدم تلك الصورة الجميلة وان يمحو ذلك الشعور الاعجابي . هذا من الناحية الادبية . ولكن الحركة في النواحي الاخرى ظلت تتأرجح بين الفردية المطلقة وبين الجماعية ، الى ان ظهرت الحركة البوهيمية ، وواصلت الحملة الرومانطيقية على البورجوازية وعلى نظام الموالاة والمتابعة في كل شيء . فهاتان الحركتان ولا شك كان لهما مفعول كبير في التمهيد لظهور الوجودية . وساعدت على ذلك حركة اخرى وهي الحركة الطبيعية ، ومن اكبر ممثليها الفيلسوف الالماني « نيتشه » ، ولعله اعظم رواد الحركة الوجودية . واساس الدعوة في هذه الحركة المطابقة بين الكينونة الانسانية والطبيعة وعدم الاعتراف بوجود شيء وراء الطبيعة . وتشترك هذه الحركة الطبيعية مع غيرها من الحركات المؤدية الى الوجودية بقدر ما تكون الدعوة فيها شديدة الى تحرر الفرد وانطلاقه كما هي الحال في البوهيمية والرومانطيقية . وكثير من دعاة الفلسفة العملية Pragmatism في امريكا ينتمون الى هذه الحركة الطبيعية ويشتركون بافكارهم مع الفلسفة المعروفة في اوروبا باسم « فلسفة الحياة » التي اشرنا اليها في مقال سابق ، والتي من اهم مبادئها النمو وتثبيت الموجودية الفردية والابداع ، ولا يخفى ان الابداع وسيلة الى الاستقلال والى تبديل القديم بشيء جديد .

فالرومانطيقية والبوهيمية والطبيعية الرومانطيقية مهدت جميعها السبيل في وجه الوجودية التي هي اشد انواع الدعوات الى التحرر الوجودي الفردي . هذا من الناحية الايجابية ، ولكن العوامل الاخرى السلبية لا تقل عن هذه قوة وتاثيرا . ومن هذه العوامل عامل الانسلاخ وعامل استفحال التكنولوجيا وعامل اهتمام الانسان بمحيطه الخارج عنه دون نفسه وعامل الالحاد والخروج عن طاعة الدين شيئا فشيئا في الغرب . ففقدان الانسان لعالمه الداخلي بسبب الثورة الصناعية وتحكيم العقل المجرد على اثر النهضة العلمية ونشوء الراسمالية كان له اكبر الاثر في حركة تحررية ردا على هذه العوامل والظروف . فان النفس البشرية التي اصبحت شيئا مما يحسب ، كما تحسب اجور العمال ، ويتصرف به كما يتصرف بالسلع التجارية لم تعد نفسا بشرية بل اصبحت شيئا من الاشياء. وهذه احدى نتائج الظروف التكنولوجية ، واهم هذه النتائج انتاج الآلات والادوات حتى أن البعض عرف الانسان بانه الحيوان الصانع للادوات . ولكن الشيء الغريب ان الانسان اذا اخترع شيئا سواء كان اداة او آلة او كلمة فان هذا الشيء المخترع يصبح مع الزمان غريبا عن الانسان الذي اخترعه بل قد يصبح سيدا له بعد ان كان عبدا . وان زيادة الحياة الميكانيكية عند بني البشر قد يؤدي الى خلاف ما يقصد به في اول الامر ، كالتشويش والتأخير والازدحام التي تحدث في المدن الكبيرة بسبب كثرة السيارات وبسبب الانظمة الميكانيكية لضبط السير . وقد بلغ من طغيان التكنولوجيا على الفكر والحياة ان الاسلوب التفكيري يكاد ينطوي ويحل محله الاسلوب التكنولوجي الذي يستعمل بعض الادوات الفكرية كما تستعمل الادوات الآلية .

لندن — **حسن الكرمي**

تعريف

ولد الكاتب والشاعر الايطالي جوزيبي لونغو في مدينة مسينا ، في جزيرة صقلية ، عام ١٩١٠ . وكاغلب النابغين من ابناء الجنوب الايطالي الفقير غادر صقلية الى الشمال الايطالي ، حيث يقيم الان في مدينة البندقية، ويصدر فيها جريدة الغازيتينو اليومية ، ويعمل كذلك في دار كابيللي للنشر رئيسا لسلسلة من منشوراتها التي تعنى بالادباء الناشرين الايطاليين واسمها Ippocampo.

لقد بدأ لونغو العمل في الصحافة منذ عام ١٩٢٧ ، وكان عمره ١٧ عاما فقط ، ولم ينقطع عنها منذ ذلك الحين . وقد تقلب في تحرير عدد غير قليل من الصحف اليومية في انحاء مختلفة من ايطاليا ، ونال عن طريق ذلك شهرة واسعة ككاتب مقالات سياسية ، وكثيرا ما كان يوقع مقالاته باسم مستعار هو باولو تارسو Paolo Tarso وقد اشتهر بهذا الاسم المستعار منذ عدة سنين .

اما اول مؤلفاته الادبية فقد كان كتابا نثريا بعنوان اكوافورته وقد ظهر عام ١٩٣٢ ، وفي عام ١٩٣٨ ظهرت له مجموعة اقاصيص بعنوان رابية الفقراء وفي عام ١٩٥٢ صدر كتابه الثالث ، وعنوانه الايام الماضية الذي اعيد طبعه ثلاث مرات خلال فترة قصيرة ، وقد نفدت طبعته الاولى في الشهرين الاولين لصدوره ، وقد نال اهتماما كبيرا من النقاد الايطاليين ، كما استحق عليه مؤلفه جائزة باغوتا لعام ١٩٥٣ . وبعد هذه المؤلفات صدرت له رواية بعنوان غيوم وجياد وديوان شعر بعنوان واحد واربعون وهذا الديوان هو الذي نترجم عنه القصائد التالية (المترجم).

اللحية Barba

اغلقوا الباب
ودعوا الناس
يذكرونني
بمساوئي الخضراء
واظفاري الحادة .
ارجوكم ان لا تدعوهم يرون
منظر شيخ مريض
مسلوب الارادة
ذي لحية شعثاء

الاحلام I Sogni

دعني استطيع دائما
قيادة احلامي
الى اماكنها الثابتة
حيث تنطلق
مع الكلاب

من الشعر الايطالي

الشاعر الايطالي جوزيبي لونغو

Giuseppe Longo

في ديوانه « واحد واربعون »

Quarantuno

ترجمة عيسى الناعوري

•

موسم Stagione

حبنا الان في موسمه
يعطينا ثمارا ناضجة .
لا تقطفيها ، بل دعيها
تجدد اخضرارها
كشجرة البرتقال في الصيف
تغير على الغصن
لون ثمرتها الخضراء
فاذا ما انفصلنا يوما
لا تظل شفاهنا جافة

في زمن ما Un tempo

في زمن ما ، في نور الصباح
كنت استيقظ شفافا



جوزيبي لونغو

فارى عبر الجدران
بلدانا بعيدة صافية
وبحارا ، وجبالا ، وانهارا
ودروبا في مدن غاصة بالناس .
وكان هينا علي
ان احمل اليك مخترقا الجبال .
اما الآن ، والضباب يغلف الجدران
وقد اصبحت لا استطيع القراءة دون نظارات،
فلم يعد في وسعي ان اميز
لون العصفور الواقف على حافة الشرفة .
ولم يبق لي ما يرطب فمي
غير حلاوة الذكريات

معجزة Miracolo

وانا ايضا متسربل بالربيع .
انت ترتدينه في ثيابك
وانا في قلبي .
ان عيناك تريانني
مزدهرا في كل شيء .
وهذه معجزة الحب .

الموسم المقيم
Ferma questa stagione

هذا الموسم مقيم .
شجرة دون جذور
كسروة عيد الميلاد .
ستكون لي جذوع خضر
واغصان قوية
لكي اطيق
عطايا الفرح العابرة
داخل ضيائك .

تسلح Armatura

انت في ثياب العرس
وانا مدجج بملابسي المقلقة
كمحارب قديم ،
كذلك ذهبنا لمراسم الزفاف .
ولكن قهرني
بريق ثيابك .

متجانسات Omonimie

ليس لي سلام
ولا منزل لي ،
ليس لي غير هذا العالم
بكل ما بقي لنا من الماء
الذي سينزل هذا المساء مطرا
دفعة واحدة .
ليس «لونغو» سوى لفظة متجانسة مع غيرها،
انه اسم مثل « روسي »

ومثل « بيانكي »
ومثل « تيتسيو » و « فيلانو »
ومثل « لا احد » ،
وانت بعيدة عني .

آثـام Peccati

عندما يرتفع ضغط الدم في البندقية
يتصلب شريانها الكبير
الذي يصب وينتشر
داخل نسيج شمعي من الازقة
كانه وجود مسموم
ولا يعود الماء يجري في قناله
الى البحر
الا بعد توبة طويلة
بعد ان تعترف بذنوبها
النساء واللصوص ،
فيحمل الماء معه ثمرات تلك الآثام
والزجاجات الفارغة
التي تسببت في انجابها

جسـر Ponte

اننا نسير
على اديم الارض هذا
دون امل في الانتصار على الزمن
وجسر ريالتو
نعبره وحده مياه القنال

امسية كئيبة Triste sera

لقد عبر موسمي
فلن تضحك لي بعد الآن
افواه النساء الشبقة .
ايتها الامسية الكئيبة ،
كيف استطيع ان القاك ؟

ما بقي لي Cio che mi resta

لم يبق لي غير القليل ،
وعجيب
انني ما ازال استيقظ
وانني ما ازال ارى
ماء القنال ،
وافكر فيك
وانتظر ان تاتيني مضطرمة

الموسم الذي لا يعود Stagione che non torna

الموسم الذي لا يعود ،
وجنتاك
النابضتان بالشباب
اراهما من جديد
في وجه الفتاة المراهقة المارة
متابطة ذراع
فتاها العاشق
في طريق المرج

*

لقد كنت منيرة بكليتك بذلك السر
الذي على عتبته
كنا نتمهل في خطونا .
والآن تسيرين متأبطة آلامك
وندامتك
وحرارة الذكريات ،
ولا يلون طلعتك
غير الطفلة التي تمسك بيدك
وغير العابها البهيجة ،
فهي تعيد الى ذهنك
الطفولة المفقودة
التي ما تزال تسيل على الاهداب
في عيون الابناء النامين

شمعة النذر Cero Votivo

لكي اصوغ
فكرا اوليا
تعبت كثيرا
كعبد ارهقه الجداف ،
فاذا ما اضطررت
في مداورات الذهن
المتشابكة
الى الجري وراء
اسرار العقل المتلاحقة بسرعة
والتي لم يقدها بعد
النور الالهي
فسأذوب حتما
كشمعة النذر

النجمة الحانية Stella Pietasa

السنابل الخضراء
وسائر النباتات
التي لا اعرف اسماءها
مع انها تضحك بخضرتها
على الربى والسهول
بالوانها الفاتحة او الداكنة ،
وتلك الاعشاب الاخرى
من ربيبات الارض ،
جميعها تملأ عيني
بالعجب
الذي احمله معي
في رحلتي القصيرة
وفي انظاري المحدقة
داخل السر .
انني انا ايضا نجمة حانية
فوق الدنيا

القشة Il fuscello

نحن هنا
حاضرون في وجودنا
كالشجرة على الغصن ،
وفي انتظار الخريف
الذي سيفنينا
نعمل ، يا الهي ،
كما يليق بكل صانع .
ان عملنا بطيء
والحجر اللامع
الذي يسقط من ايدينا
كالحجر الذي ينطلق
من مقلاع الصبي
الكامن في الحديقة
تحت غصون السنديانة العتيقة جدا
يتربص بالدوري القادم من بعيد
حاملا في منقاره قشه

تعظم Magnificat

هذه الحياة العجيبة
المصنوعة من معزوفات باخ
في معبد مالا تيستا
سنضطر الى مغادرتها
وسنشعر لذلك بالالم ،
سنستاء كثيرا للالوان
التي ترتعش في لوحات سيزان
وانغام الناي في الاوركسترا
وللصوت الانثوي العميق
الباحث
في خضرة بحر الالحان
عن طحلب الاعماق المخرخر
على شفة الزمار
وعلى اللفائف الناصعة
حول اعناق الراهبات
في دمدماتهن الخافتة
عند تقديمهن النذور الرهبانية .

عمان عيسى الناعوري



اتحدى

* * *

اعصفي يا خطوب.. بل زلزلي الكون وشدي على الورى اي شد
وانثري كل زهرة تنفح العطر وردي شدو العنادل ردي
وامسحي بسمة الصباح ... وعري كل روض من كل نفحة ورد
حولي النور ظلمة وخرير الماء قصفا ، فما ابالي التحدي
ساغني الحياة الحان حبي واذيب العطور في كأس شهدي
وادير المدام في جام ودي واناجي النجوم في ليل سهدي

* * *

لي السماء الضحوك والبلبل الصادح والغصن راقصا للرياح
لي هدير الامواج عبر غدوي في رحاب الهوى .. وعبر رواحي
حيث ذقت الهوى ولم ادر معناه سلافا بريئة الاقداح
زرع الحب في فؤادي للناس وروى من الحياة التياحي
واراني صحراءها وهي جرداء جنانا تندى بطل الصباح
واسال العيون في قفرة العيش رحيقا يسقي ظماء الاقاحي
فنما في رحابها زهر عمري وتجلت بعرسها افراحي ...

* * *

رب ليل كان الحبيب به نشوان والبدر في السماء رقيبا
نتوارى عن عينه بعسيب النخل نلويه يانعا ورطيبا
ثم نغدو ولا رقيب على الشط نلم التراب مسكا وطيبا
مثل طفلين افلتا من زمام الام صاغا الحياة روضا قشيبا
وغناء الامواج ما زال في السمع بطول المدى قريبا ... قريبا
مبعث الفتنة التي احيت الروح واذكت بين الضلوع اللهيبا
انا احيا بها وان بعد العهد وارجو زمانها ان يؤوبا

الشارقة

صقر بن سلطان القاسمي

قصة

الحاوي

بقلم جهاد الكاتب

وصل الحاوي الى فسحة الحي الترابية ، ورمى حماله عن كتفيه . وسارع كلبه في الحال الى نباحه الموسيقي ، فتقاطر الاولاد هازجين ، وزحف عدد من الشبان اللاهين الى الفسحة ، بينهم بعض شيوخ الحي ونسائه . وراح الصبيان يتراقصون حول ادوات الحاوي واكياسه المنتفخة ، وما لبثوا ان ابتعدوا الى اقصى الفسحة بعد ان زجرهم الكلب بنباحه وطاردهم .

خلع الحاوي سترته العجيبة ورمى بها الى الارض بحركة مسرحية متكلفة ثم رفع يديه الى الاعلى ، مدللا على نظافتهما من الغش ، واسرع بانتشال بعض ادواته من الكيس . وفي لمحة عارمة بالضجيج بسط الحاوي ادواته بتناسق بديع ، وصفق بعدها صفقتين متأهبا للعمل ..

طاف الكلب حول الحاوي فخلق دائرة بشرية ، من جالسين ومتقرفصين ومنتصبين .. ثم اقعى خلف صاحبه باسطا يديه متلهفا لرؤية مزيد من الاعيبه السحرية . وما ان غلب الصمت المكان حتى بدأ الحاوي عمله مخاطبا المتفرجين بلهجة خاصة .

— ايها السادة ، ترون الآن العابا سحرية .. لم يسبق لكم أن تمتعتم بها من قبل .. وكلي امل ان ترضيكم ليتقدم احد الاولاد .. سأعطيه خاتما .

وما ان ابدى هذه الرغبة حتى عادت الفوضى تسيطر على المكان من جديد ، اذ اندفع كل الصبيان بحماسة الى الحاوي الذكي ، العارف لامور مهنته ، اسرع في اختيار صبي من الصفوف الخلفية ليكون مساعده ، وفرق الباقين بابتسامة خاطفة .

نبح الكلب .. ولما لم ير بدا من اندفاعه اخترق بعض الصفوف مطاردا الصبيان من جديد ، فخيم الهدوء على الفسحة ، وبدت اشبه ما تكون بقاعة محكمة صامتة . هتف الحاوي :

— انظروا جيدا .

والتصقت العيون باصبعيه . واستدار هو نحو الجميع ، رافعا يده الى اقصى حد ممكن .. والتف حول نفسه مرات عديدة .

— هذا خاتم من الذهب .. ساعطيه للولد .

ثم وجه كلامه الى الصبي المذهول باستهتار فاضح .

— اسمك ؟

اجاب الصبي مرتعدا ، بعد ان وضع الحاوي يده القوية فوق رأسه .

— اسعد .

— ارفع صوتك .. ما احد سمعك لا تخف .

قال الصبي بصوت مرتجف ، وعيناه مقفلتان :

— اسعد

تابع الحاوي لعبته قائلا :

— اسعد .. خذ الخاتم . حطه في جيبك . انصرف .

اطاعه الصبي واسرع يأخذ مكانه في الصف الاول ، والعيون تتملقه بشدة ، ولم لا وقد مسه الساحر بيده !

وهمت امرأة مسنة ان تداعب الصبي ، الا ان احد الحاضرين اجبرها على التزام الصمت .

قال الحاوي بأسلوب بارع ، فيه كثير من اصول المهنة وفنها :

— اسعد اخذ الخاتم .. صحيح ؟

واهتزت الرؤوس بالايجاب .

— تطلعوا الى المنديل ..

ونشر امام المتفرجين منديلا بنفسجيا نفضه مرتين ، ثم بدأ يصنع في وسطه عقدا متتالية ، وهو يعدها بصوت متراخ ، حتى انتهى الى العقدة العاشرة ، وعندها راح يردد كلمات غريبة لا يفهمها حتى الفقهاء ، اذ هي خليط من حروف متشابكة ذات وزن سحري . وبعد ان لوى اصابعه حول المنديل ونفخ عليه نفختين بدأ يفك العقد واحدة اثر اخرى ، وقبل ان يأتي على العقدة الاخيرة ، ولكي يضفي على الموقف مزيدا من التشويق صرخ بصوت راعد .

— الخاتم في المنديل .

وراح يفك العقدة بتباطؤ شديد ، حتى التقط الخاتم باصبعيه ، فرفع يده عاليا ، وعلى ملامحه نشوة عميقة .

وحدثت ضجة عنيفة في انحاء الفسحة ، اختلط فيها التصفيق بزعيق الصبيان . وبدا الاستنكار واضحا على بعض الوجوه في حين ان الاطفال ابدوا اعجاز الساحر واقروا بقوته ، كما ودارت على السنتهم اسئلة عادية ؟

— كيف رجع الخاتم الى المنديل ؟

— عجب .. الخاتم من الذهب ؟

— لو كان عندنا ساحرون .. كثيرون ، كنا نسيطر على العالم ؟

وسمع صوت فتى يتحدث من الصفوف الخلفية :

— معه خاتمان .. القضية واضحة كل منا يستطيع ان يلعب اللعبة .

واجاب عنه صبي صغير ، دون ان ينظر الى الخلف :

— هو ساحر ، انزل الى الساحة واعمل مثله .

وارتسمت ابتسامات باهتة على الوجوه ، وهمس احد الشيوخ في اذن الفتى :

— باب رزق يا بني ، تطلع واسكت .. اللعبة تسلي .

ولم يدر الفتى ماذا يقول فآثر الصمت .

حمل الكلب بفمه صحنا مهترىء

الجوانب ، وراح يتلكأ حول المتفرجين ، ونتيجة لذلك انسحب عدد كبير منهم شاتمين هذا الاحتيال المكشوف ، بينما راحت قطع النقود المعدنية تترنح في قعر الصحن ، ويتطاير بعض منها على التراب ، فتطوع احدهم بملاحقة خطى الكلب والتقاط ما قد يقع . كان الحاوي قد انتصب وسط الفسحة فخورا ، تموج على وجهه انطباعات متناقضة . لقد اثبت امام الجميع انه عبقري ، وان كان مع نفسه يوافيه الضحك ، بل واحيانا تسيطر عليه السخرية من عمله الشائن . ولكنه يبرر لنفسه دوما طريقة كسبه ومشروعيتها ، فهو لا يجبر احدا على الدفع ، أو يسوقه الى الفسحة بالاكراه ، فما يمنعه اذن ان يقنع بصدق عمله وجديته . ورغم ان كلمة ساحر تثقل سمعه احيانا ، الا انه بدأ يتقبلها ، لا لشيء الا لانها تمثل حقيقته التي يمارسها امام الناس فاضحة .

سمع ، وهو يتفرس الوجوه ويقلبها ، احد الشبان وهو يقول لصديق له :

ـ ان كان ساحرا ، فلماذا يعمل ؟ مثلما نقل الخاتم الى المنديل فلينقل الملايين من الاموال الى جيبه .

واكتفى الصديق بان اومأ برأسه مستنكرا هذا الاستنتاج السخيف . ولكن الحاوي آثر ان يثبت للجميع انه لا يبتذ شيئا منهم ، فنادى كلبه ، وصاح بعدها باعلى صوته :

ـ الآن لعبة خطيرة .. اقدمها للمرة الاولى .

وبدأ وجهه منتفخا .. لست ساحرا ولكنني ساثبت اني اعيش من عرقي تحت هذه الشمس .. يضحكون ، يتسلون ، يسخرون .. المهم ان اعيش . المهنة يجب ان تكون محترمة .. لذلك فليس امامي الا لعبة السيف . قال وقد رفع بيده سيفا طويلا لامعا .

ـ لعبة السيف .. لعبة السيف . وشعر بالخوف يجتاح قلبه .. كل الالعاب يمكن ان يطعن بها ، الا لعبة السيف ، انها لعبة جديدة تعتمد على التضحية والذكاء . لن يقولوا له بعد الآن « هذا احتيال .. سرقة مكشوفة » . وخيل للحاوي انه بتقديم لعبته هذه سيقضي تماما على كل تحد وسخرية . هناك في القرى يمكنه ان يقوم باسهل الالعاب واقلها مشقة ، ومع ذلك يعتبرها القرويون اعاجيب خارقة . حتى ان احدهم من السذج قال له مرة بعد ان انهى العابه :

ـ تأخذ كم .. حتى اعرف الكلب سارق حصاني الاشقر ؟

وكلما تذكر قصصه في القرى شعر بتفاهة مهنته وحقارتها ، ومع هذا فهو يحمل منها ذكريات ساخرة يذكر تماما تلك المشادة التي دارت بين اثنين من القرويين .

ـ الطير كان في القنينة .

ـ لا .. الطير كان في العلبة .

ـ طيب .. والعلبة ؟

ـ في الطربوش .. انا تشوفته ، ما اعمى انا .

ـ غلط ، انت بهيم ، القنينة فيها طير .. عيني ما تكذب .

ـ انا بهيم ! الطربوش فاض .. قلبه ، كانت فيه العلبة ، فتح العلبة .. كانت فيها القنينة والطير .

ولولا حكمة الحاوي وتدخله بين القرويين لتفريقهما لكان الامر قد تطور وخرج عن نطاق الرجلين . هذا ما يحدث في القرى ، اما في المدن فكل واحد ، عدا الصفار ، ينصب من نفسه شارحا ومعلقا ، لا يقتنع بشيء حتى ولو كان حقيقة .

ـ الآن ، ابلع السيف . لن تشاهدوا غير المقبض .

قال الحاوي ذلك وراح يمسح السيف بخرقة بالية اخرجها من جيبه . وكان الكلب قد اقعى خلف صاحبه مرتجفا ، وعيناه زائغتان . وران صمت الترقب على الفسحة ، رغم ان عددا كبيرا من الناس اخذ يتوافد الى الفسحة ، وهم يترافعون على اصابع اقدامهم . وعندما رفع الحاوي رأسه الى الاعلى وفتح فمه شعر المتفرجون بقرب ساعة الصفر ، فازدادت قلوبهم اضطرابا وقبضاتهم انكماشا ، وغاظه ان يسمع همسا يقول :

ـ قضية تمرين .. اعتياد ، لا اكثر ولا اقل .

كان قرص الشمس يعربد في قمة السماء الصافية ، لا غيم ولا طير ، بل خيوط نارية تنصب كلها على وجه الحاوي . وطالت وقفته وهو يشمخ امام الشمس .. لو كان ابي علمني اي صنعة ثانية .. تافهة ، فيها تسليم بالحقيقة ، لما قابلت اليوم اللهيب . لعبة السيف خطرة ، حذرني منها كثيرا ، مع انه لا يكف عن القيام بها .. انا ايضا يجب ان استعملها . الافواه يجب ان تصمت .. كان يجب ان يأخذوا رأيي عند ولادتي ، لا اريد ان اخرج من العتمة الى هذا النور . رفع الحاوي السيف بيمينه ووضع يسراه على حافة فمه ، ثم بدأ يغرسه شيئا فشيئا بعد ان قذف لسانه الى الخارج ، واذ اخترق السيف حلقوم الحاوي شعر المتفرجون بحرج الموقف ، وادركوا ان اللعبة اخطر مما كانوا يظنون . وامعانا من الحاوي في رسم صورة جدية للعبته ، وتحديا منه لبعض الشبان المغرورين ، دفع بسيفه اكثر فاكثر الى جوفه . وسمعت لحظتها تعليقات وشهقات وصفير ناعم ، وفجأة هزت احشاء الحاوي وخزة مؤلمة ، فاغمض عينيه وارخى يديه وبدأ يطوف على المتفرجين ، وقد تقاطرت حبات من العرق على وجهه ، رأسه الى الاعلى وركبتاه مقوستان .

كان الكلب يتابع بنظراته السيف المنغمس في احشاء صاحبه ، اما المتفرجون فقد امسك بعضهم بعضا دون وعي منهم وهم يلتهمون بعيونهم دقائق المشهد الفريد ، وشق الصمت صوت خشن .

ـ السيف من المطاط .

شعر الحاوي وكأن السماء تتهادى

بقرصها الشمسي لتسقط على راسه وغشيت عينيه الوان صارخة ، واذ لمح المتفرجون نقطا من الدم حول فم الحاوي تظهر فجأة اضطربت صفوفهم بريح من التساؤل ، وكان الحاوي يترنح بعد ان دار امام العيون القاتمة وتمتعت برؤية لعبته ، لقد ادرك ان عليه ان ينهي اللعبة والا فانه يثبت عجزه التام عن تمثيل الحقيقة وتعريتها . وعندما بدأ يسحب السيف من جوفه وقف الكلب حذرا ، يحرك ذيله باضطراب ، لاهثا ، حتى انه نسي الذباب المتكاثر حول انفه واذنيه الطويلتين .

تماسك الحاوي مع نفسه حتى انتشل السيف من جوفه ، وانفجر ضجيج مفاجىء بعد ان اطلق الحاوي صرخة الم مريعة دوت في ارجاء الفسحة ، وهرع المتفرجون نحوه يجذبهم الفضول ، او لنقل الحرص على معرفة النهاية ، فما كان من الكلب الا ان اغار عليهم وراح يعيدهم ويجبرهم على الرجوع الى مواقفهم السابقة ، وبعد ان افرغ الفسحة عاد الى صاحبه يحوم من حوله ، وقفز فجأة الى صحنه ..

اما الحاوي فقد اخرج منديله بيد مرتجفة وراح يمسح دما يظهر من جديد بعد كل امرارة من يده ، ولم تبد عليه دلائل الجزع ، بل كان مطمئنا ، رغم ان مظهره يوحي بتعاسة وألم . شيئا واحدا اراد ان يثبت ، وهو انه ليس محتالا او لصا .

كان الصبي الذي خبأ الخاتم في جيبه قد انسحب وفي عينيه دمعتان والحقيقة ان جمعا غير قليل من المتفرجين بدت على وجوههم خيبة امل وانطباع ساخط لم يدرك الحاوي مبعثه ، وما لبث هؤلاء ان انسلوا واحدا اثر واحد ، ولم يبال احدهم ان يقول لصديق له وهما يغادران الفسحة :

— واضع في فمه (برشامة) حبر احمر ، عض عليها فتنزل شيء مثل الدم .

ووجد الحاوي نفسه اضعف من ان ينبس بحرف واحد ، ولكنه لم يستطع ان يمنع الدمع من التكاثر في عينيه ، فحاول ان يختلس نظرة الى السماء .. وفجأة تذكر انه لا يزال يحمل السيف في يده اليسرى .

حلب **جهاد الكاتب**

يا احور الطرف

●

يا حامل الكأس .. هذا القلب ما برحا ... سكران من خمرة الاهداب مطرحا
عاطيته الراح اشكالا ملونة ... وأحسن الخمر ما سوداءنا لفحا
جد لي بسهم من العينين منصلت ... لعلني اتداوى بالذي جرحا
قال : اتئد .. ليس يجدي الطب ذا شغف ... وما خبرت قتيلا في هواي صحا
فقلت : رفقا .. فاني مدنف تعب ... أمضه الحب حتى مله شبحا
فقال : ما ذنبنا ؟.. والله اسلمنا ... روح العباد اذا ما عاشق رزحا
فقلت : هل حلل الرحمن سفك دمي ... فقال : ويحك في دنيا الهوى سمحا
فقلت : لم ارتكب اثما ومعصية ... بحق ظبي بارض الشام قد سنحا
احب آرام حمص في تأودها ... وقد نفت عن فؤادي الهم والترحا
أحبها وليالي الشعر حالكة ... وأعبد الصبح من اشراقها وضحا
والثغر .. لولا حديث كنت اسمعه ... لم ادر هل برعم المنشور ام فتحا
يا أحور الطرف زدني بالعيون لظى ... ما اجمل اللحظ : ما اخفى وما شرحا
ويا حنينا من الانغام ان نطقت ... حسبتها البلبل الفريد قد صدحا
والوجنتان .. وماء الورد ماؤهما ... كاسان من خمرة الاشواق قد طفحا
وجيدها ياسمين بت الثمه ... كم من ضريح لها في صدرنا ضرحا
وعقدها سبحات جمعت شغفا ... ما ابدع العنق القديس والسبحا
والناهدان كمصباحين من الق ... ترى الربيع على الاضواء منسرحا
قالت : لم الآهة الحرى وسدرتها ؟ ... صبرا .. فكم من حبيب قبلكم فضحا
فقلت : ان لم نمجد سحركم ابدا ... ما فاح طيب على الدنيا ولا نفحا
نحن السكارى .. وذوب الروح خمرتنا ... اكرم بها خمرة ما لامست قدحا

يا صاحبي ولي حب يعذبني ... وكان قبلا اذا عاتبته صفحا
من ذا يعلمه هجري ليقتلني ... وقد نظمت له الاشعار والمدحا
وكم بعثت مع الانسام اخبره ... عما الاقي من الاشواق والبرحا
فكان كالظبي يوليني مياسره ... فان سنحت له في غدوة برحا
ما ابدع الدهر .. والايام مشرقة ... واضيق الكون في الجلى وان فسحا

يا باعث الحب في الدنيا ومفرعة ... ومن بيمناه هذا الكون قد مسحا
هب لي غراما كنور الشمس مشرقة ... يشع صبحا ويهدي العالمين ضحى

حمص **عبدو مسوح**



محمد رجب البيومي

هل من جديد في الادب الاندلسي

بقلم محمد رجب البيومي

نال الاستاذ محمد رجب البيومي الجائزة الاولى في مسابقة البحوث الادبية لمجمع اللغة العربية بمصر ١٩٦٥ ، وذلك عن بحثه القيم « الادب الاندلسي بين التأثر والتأثير » ويسرنا اليوم أن ننشر مقدمة هذا البحث الجديد ، بعد ان نشرنا في الاعداد السابقة بعض فصوله الأصيلة ، وبهذه المناسبة نذكر ان الاستاذ نال في العام السابق جائزة المجمع في الشعر عن ديوانه « صدى الايام » كما نال في العام الاسبق جائزة المجمع الاولى في المسرحية الشعرية .

بدات الدراسات الادبية تتزايد في حقل الادب الاندلسي ، وهي تلقي كثيرا من الضوء على حقائقه الغامضة ، فكل باحث جاد يخطو خطوة لاحقة في الطريق ، ويقدم من الآراء ما يكون موضع التحليل والتمحيص ، وذلك كسب كبير !

وقد رأينا من الكتاب من ينادون بالتريث في دراسة الادب الاندلسي ، وحجتهم ان اكثر كنوزه لا تزال مطمورة في خفايا النسيان ، وما تقدمه المطبعة بين الفينة والفينة من نفائس المخطوطات لا يساوي شيئا اذا قيس بما تختزنه المكتبات العالمية في الشرق والغرب ، وقد تبدو لهذا الراي وجاهة سريعة عند من لا يتعمقون الاشياء ، اما الذين اوتوا نصيبا من الدقة الحصيفة فيعرفون ان الكلمة الاخيرة في اي ادب من الآداب لم تقل بعد ، وان كثيرا من الحقائق المتأصلة على مر الاحقاب تتعرض لانهيار مفاجيء حين يعمد لها من يتسلح بالمثابرة والنفاذ فيرى بها غير ما يرى السابقون من ذوي التفكير ! واذا كان ذلك شيئا طبيعيا في دنيا الادب والعلم ، فلماذا نجفل عن دراسة الادب الاندلسي ؟ والى اي مدى ننتظر ؟ وما الذي يمنع ان نقول كلمتنا الآن ، فاذا جد جديد تتمخض عنه المخطوطات المطمورة ، فانه اذ ذاك لا يصطدم بمنطق الاشياء بل يكون اطرادا للسير على منهج معلوم ! ولعمري لو افلح هؤلاء في صد الباحثين عن قضايا الادب الاندلسي انتظارا لما سيجيء لتطاول الزمن دون ان نظفر بما ينقع الغليل في منطق اولئك ، وهكذا تضيع الحقائق بين المطال والتسويف .

ومنذ اصدر الاستاذ الدكتور احمد ضيف كتابه عن بلاغة العرب في الاندلس ، والآراء تتفق وتفترق حول هذا الادب الحبيب ، فلكل باحث رأيه الخاص في اصالة الادب الاندلسي او تقليده ، ونحن نرحب بهذا الاختلاف ، ونراه مما يزيد جلاء الحقائق الادبية وتوضيحها ، فهو يفسح مجال الموازنة والترجيح ويقدم من الآراء المتقابلة ما يساعد على الوصول الى النتائج المرضية ، واذا كان من المفيد ان نختلف ، فان من الضار هنا ان نتفق على رأي واحد لا نتعداه ، اذ أن احكام الآداب جميعها ترجع في بعض تقديراتها الى الذوق الفني وليست كقضايا العلم التجريبي الذي ينفرد فيها العقل المجرد بميزانه الدقيق ، واذا كان للذوق الشخصي نصيبه في الحكم الادبي فلا بد ان تختلف الاذواق ومن ورائها اختلاف القضايا والاحكام !!

ونكلف انفسنا كثيرا من الشطط اذ نستعرض كل ما قيل بهذا الصدد من الآراء المعاصرة منذ اصدر الاستاذ الرائد احمد ضيف كتابه عن الادب الاندلسي ! ولكننا نختار بعض النابهين ممن يقفون وقفات متعارضة في هذا المجال ، لنسمع ما يقولون كما دونوه ، فاذا كان لنا من تعليق على ما قيل ، فبعد ان يقف القارىء على وجهات النظر واضحة مستوفاة ، وسنقف موقف المفسر فقط ! لتتضح الامور على وجهها الصحيح ...

لنا ان نختار الدكتور احمد امين على رأس القائلين بتقليد الادب الاندلسي واتباعه ، فقد اكثر قديما من المناداة بهذا الرأي في مقالاته الصحفية ، وبحوثه العلمية حتى اذا تعرض للفكر الاندلسي اخيرا بالجزء الثالث من ظهر الاسلام وجد المناسبة الواضحة لترديد هذا الراي الذائع عنه في اكثر من مناسبة . فانبرى يبدىء ويعيد في تسجيل هذه المحاكاة الضيقة ! فهو مثلا يقول في ص ١٠٤

« ولذلك لو اغمضنا اعيننا ، وجهلنا قائل القصيدة اهو شرقي أم اندلسي لم نكد نحكم حكما صحيحا جازما على الشاعر ، اغربي هو أم شرقي ولذلك كثيرا ما تنسب بعض الابيات الى اندلسي ، وينسبها بعضهم بعينها الى مشرقي لعدم التمييز الواضح حتى عند الخبراء ، وربما كان مصداق ذلك ما حكى ان الشاعر الاندلسي الملقب بالغزال وجد في بغداد جماعة من المثقفين ، فانشدهم شعرا لنفسه وادعى انه لابي نواس لعظم قدره عندهم ، فصدقوه ثم قال لهم :

انها لي . ولو كانت شخصية الاندلسي واضحة في شعر اهلها لصعب نسبة ابيات اندلسية الى شاعر شرقي ، غاية ما عندهم من فروق ان الطبيعة الاندلسية الجميلة مكنتهم ان يقولوا كثيرا في شعر الطبيعة ، وهذا لم يكن معدوما في المشرق ، فان الصنوبري مثلا وهو الشاعر الحلبي خلف لنا ديوانا كله تقريبا في ذلك » .

ويردد الدكتور مثل هذا القول في ص ١٢٠ وفي ص ٢٠٢ حتى اذا بلغ نهاية الشوط ختم بحثه عن الادب الاندلسي بقوله ص ٢٣٠

« ولئن دفع الادب الجاهلي الادب المشرقي ، فالادب المشرقي دمغ الادب الاندلسي وكان الظن ان يؤثر الادب الاسباني والفرنسي اثرا غير تاثير الادب الفارسي واليوناني في المشرق ولكن حدث ان تأثر الاندلسيون بالمشرق اكثر من تاثرهم بالاسبانيين لوحدة اللغة ووحدة الدين ، والخلاصة ان الاندلسيين في ادبهم وسعوا الانتاج اكثر مما نوعوه فبدل ان ينتجوا باء بجانب الالف وهو الادب المشرقي انتجوا الفا اخرى تتشابه مع الاولى في الموضوع والوزن والقافية والسجع ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يحسون مركب النقص بالنسبة لادباء الشرق فكملوه بمجاراتهم بدعوى التفوق عليهم ، ولكنهم لم يتفوقوا ، والظاهر ان تيار المشرق كان قويا حتى استحوذ على ادب المغرب ولم يسمح له بالخروج عنه ، نذكر هذا بعد ان قرانا كثيرا من آثار الاندلسيين وقد دخلنا في بحث الموضوع ونحن نعتقد انا قادمون على شيء جديد مبتكر فاذا نحن امام ثروة كبيرة مقلدة » .

هذا بعض ما ذكره الدكتور احمد امين ، وظاهر من حديثه انه كان يامل ان يؤثر الادب الفرنسي والادب الاسباني في انتاج الاندلس على نحو ما اثر الادب الفارسي وتراث اليونان في الادب العباسي ! وما نظن ذلك ممكنا على وجه من الوجوه ، لان الاستاذ يعلم علم اليقين ان الثقافة الفارسية فرضت نفسها على الدولة العباسية لان الوزراء العباسيين كانوا في الاكثر الغالب من الفرس وكان الوزير يقوم مقام الخليفة في كل الشئون تقريبا ، فجميع امور الحرب والمال والتوقيع بيده ، وكان من شروطه الرئيسية ان يكون مفكرا كاتبا عالما ، ولكل وزير كاتب مساعد يماثله ثقافة وعلما وفكرا بل كان لولاة الاقاليم كتاب من هذا الطراز المثقف الممتاز فحماد عجرد وابن المقفع وعمرو بن مسعدة وعبد الله بن سوار واضرابهم أدباء يحذون حذو الوزراء في الكتابة والمظهر فساعدوا على نشر الثقافة الفارسية وفيهم من ترجم بنفسه طائفة من آثارها الممتازة ! بل انهم لم يقتصروا على الثقافة الفارسية فتعدوها الى الثقافة الهندية فاستفاد الادب العربي من ادب الهند بلاغة وفنا ودخل من الالفاظ والقصص والحكم الهندية ما افاض في توضيحه مؤلف الجزء الاول من ضحى الاسلام ، هذا بالاضافة الى الثقافة اليونانية ومدارسها المختلفة في حران وجنديسابور والاسكندرية مما لقح الفكر العباسي بلقاح دسم مكين !! اما ثقافة اللاتينية بالاندلس على عهد الفتح العربي فلم تكن شيئا يجذب الانتباه حتى تستطيع التأثير في الادب العربي هناك ، كما لم تهيء لها الظروف من يستطيعون ابرازها من الوزراء والوجهاء على نحو ما قام به انصار الثقافة الفارسية في بغداد . . بل اننا نجزم انها كانت من الضحالة بحيث لم يجد فيها اعداء العرب انفسهم ما يحاولون به ان يقاوموا الفكر العربي في مده المتلاطم الجياش ، واستمع الى هذه الشكوى المريرة التي اطلقها القسيس الفرو القرطبي حين قال متحسرا (١) «ان اخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وانما لكي يكتسبوا من ذلك اسلوبا عربيا صحيحا ، واين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الاناجيل المقدسة ، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الانبياء والرسل ! يا للحسرة !! ان الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابهم ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون اموالا طائلة في جمع كتبها ، ويفخرون في كل مكان بان هذه الآداب جديرة بالاعجاب فاذا حدثتهم عن كتب النصرانية اجابوك في ازدراء بانها غير جديرة بان يصرفوا اليها انتباههم ! يا للالم ! لقد انسى النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الالف منهم واحدا يستطيع ان يكتب الى صاحبه كتابا سليما من الخطا ، فاما عن الكتابة في لغة العرب فانك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها في اسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب انفسهم فنا وجمالا ! »

هذه الشكوى الصارخة من القسيس اللهيف تنبيء ان اللاتينية لم تكن تحوى شيئا يجذب انتباه المسيحيين من ابناء البلاد ! فكيف يكون بها اذ ذاك ما يجذب انتباه العرب الفاتحين ! وقد افلح هذا القسيس المتعصب في حمل كثير من اتباعه الى الاستشهاد الانتحاري عن طريق السب في نبي الاسلام ! ولكنه لم يفلح في صرف احد منهم عن لغة العرب وتراثها الجميل ! الا يكون ذلك دليلا حيا على خواء اللاتينية الاسبانية ! وانها لا تستطيع ان تقدم للعرب شيئا ذا بال كما كان يتوقع الدكتور احمد امين !!

على اننا نسأل فنقول ماذا كان يريد نعاة التقليد ان يقوم به ادباء الاندلس من التجديد ؟ أكانوا يريدون انتاجا طافرا لا يتفق مع انتاج المشرق في شيء ! ان طبائع الاشياء تنكر ذلك فكل تجديد يحمل في طياته خطوط القديم ويحتذيه ، وما هو غير ثمرة سقطت من دوحة عريقة تضرب اصولها

(١) تاريخ الفكر الاندلسي ترجمة حسين مؤنس ص ٤٨٥ .

في أعماق القديم ! والابتكار الادبي لن يكون انفصالا تاما عن الواقع الملموس ، والا استنكره المتأدبون وثارت عليه الثوائر فلا يجد متنفسه الطبيعي ويلحقه الاختناق السريع !! اما اذا ارادوا التجديد المتئد فقد ظهر على نحو ما فيماسنفيض فيه ببعض القول بهذه الصفحات عن قريب ! وان كنا نرى ان عوامل قوية قد حالت دون التوسع الابتكاري وهي في مجموعها ترجع الى اصول نفسية تحدد للادب مجراه الذي اختطه دون ان يكون له قدرة على الانفلات البعيد .

فالعربي حين قدم الى الاندلس قدم بذكريات ادبيـــة ولغة شاعرية ، وميول عاطفية اختلطت بدمائه وجرت في عروقه ، فهي تتخايل لعينيه في روحاته وغدواته ، وتسري اليه طيوفها الحالمة في هجعاته ، ولن يستطيع فكاكا من اسرها الخالب حتى ولو حاوله بشتى المجاهدات وهو ما يعبر عنه في علم النفس بالذاكرة العاطفية التي تجر للمرء خيوط ماضيه ، فيتمثلها أنى ذهب وجاء ! فالعربي الوافد مع الفتح الاول بدوي الديباجة ، تقليدي المذهب ، لانه وان كان في عالم جديد لا يزال يحن الى الشيح والقيصوم ، ويتذكر مرابع احبابه في صحراء المشرق وحواضره! فيهتف لسانه بما يجيش به اضطرارا دون ان ينزع الى ابتكار مقصود ! هذا هو العربي الوافد ، ولن يبعد عنه كثيرا احفاده وابناؤه ممن نشأوا بالاندلس وتفتحت عيونهم على رياضها الساحرة لانهم من ناحية اولى قد ورثوا ذكريات آبائهم ، وانحدروا من أصلاب تذكرهم بعالم اخر يزدهر فيه الافصاح البدوي ، وتنفحه انسام نجد والعقيق وسلع، وهم من ناحية ثانية يقرءون ادب المشرق فيرون به صدى اشواقهم ، وينزعون اليه دون ان تقدر لهم رؤيته ، واقل شيء ان يحتذوه في اشعارهم فيكون مثالهم الارفع ، وانموذجهم الراقي ، ومن ذا الذي لا يقرا تراث امية وبني العباس من ادباء الاندلس المسلمين دون ان تجيش به نوازع تدفعه حينا الى الرحلة للشرق فيضرب في ابعاد الارض ليرى بعينيه ملاعب احلامه ومسارح عواطفه ، وتجذبه احيانا الى الاكتفاء بحفظ روائع الشرق وتقليدها على اتم نطاق !! لقد يستغرب القارىء ان اذكر له ان ادباء الاندلس ممن نشئوا بها يحنون الى الصحراء العربية دون ان يروها ! والحقيقة انني في حاجة الى ان اقوي رأيي في ذلك بما بسطه الاستاذ الدكتور ابراهيم سلامه في كتابه تيارات ادبية ص ٢٥٤ ، اذ حلل هذا الموقف تحليلا واضحا حين قال :

« وانا لنرى أن الاستنتاج الذي استخلصه بعض ادبائنا المعاصرين ، من دراساتهم للطبيعة والشعر ليس بذي خطر، فقد فصلوا بين طبيعتين للعربي في الاندلس في ادبين عربيين لكل منهما طبيعته ، دخل احدهما الاندلس رجلا مكون الفكرة مكون اللغة ، قد عرف هواه في المشرق واغلق قلبه عليه ، فما عاد يفتح لهوى جديد ، ونشأ الآخر في الاندلس فكأن مطلع حياته ، ومناط تمائمه وملعب هواه ، أما الاول فبعد ان دخل الاندلس كان يتلفت وراءه شأن كل عربي مهاجر ، يطوف ما يطوف ويشئم ما يشئم ويعرق ما يعرق وهو عالق بنجد يتنغم به في حطه وترحاله :

فان كنت قد فارقت نجدا واهله   فما عهد نجد عندنا بذميم

لذلك كان العربي الاول في زعمهم بدوي الديباجةتقليدي المذهب ، يصف الناقة والجمل ويستام لها الشيح والقيصوم في بلاد لا تنبت الا النيلوفر ، ويرى الرياض امامه فلا تغريه ولا يتسلى بها عن المراعي التي تركها خلفه ، واما الثاني فقد ولد في قرطبة ومات في اشبيلية كابن زيدون مثلا، فمثله يصف ما تحت قدميه ولا يبالي بالادبالتقليدي بل يبدع ما شاء له الابداع ! او ما شاءت له طبيعةالاندلس! ان استنتاجا كهذا ينقصه الاستيعاب والتعميم فكثير من الشعراء الاوائل في الهجرة اغرموا بالاندلس ، وكثير من الشعراء النابتين في الاندلس قد رجعوا بهواهم الى بلاد آبائهم واجدادهم ، فابن زيدون قبل ان يكون اندلسيا مخزومي الاصل والنجار ، وقد قلنا ان اللغة ليست مادة ولكنها مادة مصوره فما دامت لغتهم عربية فصورها واساليبها متحملة بصور البادية،والعربي فوق ذلك مرتبط بوطنه عزيز عليه ان ينساه مهما بعدت به النية وشط المزار !! »

هذا كلام الدكتور ابراهيم سلامة وهو يحل لنا مشكلات كثيرة في دعوى التقليد والتجديد ، وقوله البديع « ان اللغة مادة مصورة فما دامت لغتهم عربيةفصورها واساليبها متحملة بصور البادية » هذا القول ينقذ كثيرا من الشعراء مما حكم به عليهم بعض الناقدين من عقم وامحال ! ولنا ان نضرب المثل على صحته بشاعر معاصر هو الاستاذ محمد عبد المطلب ! فقد عرف بين الشعراء بالشاعر البدوي ! وكان لشعره ــ ولا يزال ــ تأثيره الحي على قارئه لانه ــ باعتباره عربيا من قبيلة جهينة التي تنزل بمحافظة سوهاج في الصعيد الاعلى من بلاد النيل ــ قد كان يحس احساسا صادقا بمرابع اجداده في نجد ، ومنازل قومه الابعدين في الجزيرة العربية اذ كانت مهبط الاسلام ومشرق النور ثم مبعث الحضارة العربية الى العالم في شتى القارات ! هذا الاحساس المعتز ، جعله يستروح البهجة والسعادة حين يتغنى بالصحراء ! وقد كان تأثره صادقا لانه في بعض مواقف انشاده كان ينشج بالبكاء ! واكثر الادباء يحكمون عليه بالتقليد ، ويقرنونه في ذلك ببعض من يسلكون نهجه عن طريق الذاكرة العلمية فقط ! ويا بعد ما بين الشاعرين فاحدهما نظام لاقط حافظ ، وعبد المطلب يصدر عن احساس ووجدان .

والذين يشكرون لحظة في أن اللغة ليست مادة فقط ولكنها مادة مصورة تأتي اخيلتها ومعانيها متصلة كثيرا بحروفها وكلماتها ، نقدم بين يديهم ــ تطبيقا على ذلك ــ

شاعرا ينظم بلغتين في موضوع واحد ، فمع اتحاد العاطفة وتوافق الانفعال ، واحتشاد الخواطر لديه ، حين ينظم بأحدى اللغتين ، فاننا نرى جو الادب الذي يقيم في رحابه بناء قصيدته مسيطرا الى حد ما على معانيه ، فتأتي قصيدته قريبة من روح الادب الذي تصدر عنه خيالا وفكرة وتعبيرا ، ولديك شاعر عظيم كسعدي الشيرازي تفطر قلبه جذاذا لمحنة بغداد على يد التتار ، وهاله ان تصبح مقدسات الاسلام ومصونات الحضارة نهبا هباء بين ايدي الهمج والاوشاب ، فنظم في هذه الكائنة المشئومة كما يقول عنها المؤرخون قصيدتين احداهما عربية ، والاخرى فارسية ، يقرؤهما القارىء فيرى روح الادب العربي بمادته واخيلته في القصيدة العربية كما يلمس نزوحا شاسعا عن جو القصيدة العربية في اختها الفارسية ، فاذا كان يقول في الاولى :

فأين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي والفرد الزهر
غدا سمرا بين الانام حديثهم وذا سمر يدمي المسامع كالسمر
هنيئا لهم كاس المنية مترعا وما فيه عند الله من اعظم الاجر
فلا تحسبن الله مخلف وعده فأن لهم دار الكرامة والبشر
الام تصاريف الزمان وجوره يكلفنا ما لا نطيق من الامر

فانه يقول في الثانية ما ترجمته — عن بني العباس انفسهم — « اريقت دماء اولاد العباس كذلك على هذه التربة حيث كان السلاطين يضعون الجبين ، أواه ان تقع ذبابة على دم هؤلاء الاطهار ، فليصر اذن في فمها العسل علقما حتى القيامة على انه لا يليق النواح على دم الشهداء ذلك ان اقل سعادة لهم هو الخلد في عليين ، على الارض كان تراب اقدامهم كحل العيون وفي يوم المحشر سيكون دمهم لون الورد صبغة خدود الحور العين » .

والقارىء يدرك بيسر روح الادب العربي في الاولى وجو الادب الفارسي في الثانية ! وذلك ما يؤكد سيطرة الثروة الادبية التي يحفظها الشاعر وينسج على منوالها ، وليس معنى هذا اننا ننكر قدرة الشاعر المحلق على الخلق والابتكار ولكننا نقول انه يصل الى ابتكاره في طريق التراث المحفوظ ويضع ماءه في انائه فلا محيص له عن التزيي بطابعه العريق .

اريد ان نحكم بحذر على الشعراء بعامة والاندلسيين بخاصة حين نرميهم بالتقليد لوجود بعض التشابه بين احاسيسهم واحاسيس المتقدمين ! فمما يزيد هذا التشابه اقترابا اتحاد اللغة التي يعبر بها المتقدم واللاحق معا ، فيظن القارىء ان القريب يحذو حذو البعيد ! واذا كان ابن زيدون — في رأيي الخاص — ارق شعراء الاندلس واصدقهم اذا قيس بهم جميعا ، فمع ذلك نظر اليه بعض النقاد نظرة ساذجة حين وصمه بالتقليد ! مع ان حياته الزاخرة بالحب والولع والسجن كانت مددا لانبعاث آهاته وميدانا للابداع الشعري في قصائده ! فهو في اكثر ما نظمه شاعر مبدع يصدر عن احساس مشبوب ، ولكن الاستاذ الدكتور شوقي ضيف يغفل ما قررناه هنا عن الذاكرة العاطفية ، والنزوع الوجداني فيقول في كتابه الفن ومذاهبه في الشعر ص ٤٤٢ ط رابعة :

« والحق ان الانسان لا يتابع ابن زيدون في شعره حتى يحس بان هذا الشعر يكاد يسقط من ديوانه فيرتد الى أمكنته في شعر العباسيين ، ولعل هذا ما جعل صاحب الزخيرة يقول « وابو الوليد بن زيدون على كثير احسانه كثير الاهتدام في النثر والنظام » ، فهو حقا كثير الاهتدام لاشعار العباسيين يغير عليها ، فيسلبها من دواوينها ، ويسلكها في شعره على هذا النحو الذي رأيناه ، وما اشك في ان صوت ابن زيدون اتضح لنا الان ، فهو بالرغم مما يبدو عليه من صفاء وعذوبة صوت مصنوع اذ هو صدى لصوت العباسيين لا يطرد على نسق واحد ، لان الشاعر لا يختار له نسقا معينا يعيش فيه ، بل يعيش في كل نسق يقرؤه فتارة يعيش في جو البحتري واخرى في جو ابي تمام أو المتنبي او ابي العلاء من غير تفريق بين هؤلاء الشعراء ومعرفة ان كلا منهم يمثل مذهبا خاصا له وهذا هو معنى ما نقوله من ان الشاعر الاندلسي ما يزال في شعره يخلط بين جميع المناهج والمذاهب العباسية » .

وقد توسع الدكتور شوقي ضيف في تطبيق رايه فرأى في ص ٤٣٥ ان قصيدة ابن زيدون الرائعة :

أضحى الثنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

محاكاة تقليدية لقصيدة البحتري :

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا فما لجاجك في عذل المحبينا

وهو راي يتجاهل ظروف القصيدة وتعبيرها الحار عن مأساة الشاعر حين اخفق في غرامه بولادة ، وهي من الذيوع بمنزلة لا تخفى عن اقل تلاميذ الدكتور شوقي !

ولا ادري كيف نحكم على شاعر باحتذاء شاعر آخر لانهما أتحدا في الوزن والقافية وبعض المعاني الشائعة ! لو جاز لنا ان نطمئن الى هذا القياس الطريف ما عددنا قصيدة واحدة مبتكرة في الشعر العربي منذ عصر بني العباس ! والسبب واضح اذ ان من الميسور ان تجد لكل قصيدة لاحقة سلفا يتحد معها في الوزن والقافية ، لقد كان الناس منذ العصر الجاهلي يرددون قول عنترة : هل غادر الشعراء من متردم !! وما زال الشعر يسح ويهضب منذ ذلك الامد حتى جاشت غواربه واصطخبت اواذيه ! واصبحنا لو نأخذ بمنطق الدكتور ، نحرم على كل شاعر ان يقول قصيدة ما ، فلعلها تتفق مع ام لها سابقة ، ومن الانصاف للدكتور شوقي ان نقول انه نظر الى ما في نونية ابن زيدون من بعض المعاني المطروقة مما لا حيلة له فيه اذ صادف تعبيرا صادقا عن خوالجه ، ولكن ذلك لا يكفي لتجريده من الاصالة واحالته الظالمة على شاعر متقدم وان يكن ابا عبيدة الوليد ، ولقد كان الاستاذ الكبير احمد ضيف اصدق حكما واكثر نفاذا حين حكم على النونية من خلال تجربتها الصادقة ، ورأى في معانيها الشائعة وفي غيرها مما شاع في غزل ابن زيدون

ما يشير الى صدقه لا الى تلفيقه فهو يقول في كتابه عن بلاغة العرب في الاندلس .

« اذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس في ابتكار المعاني التي لم يسبق اليها ، وانما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولي على القلوب وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والاسلوب ولقد يسمع الانسان انينه في شعره، ويرى انته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق ، ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها » .

وقد نكون مسرفين بعض الشيء في الاستشهاد بآراء الباحثين ، وعذرنا الواضح ان قضية التقليد غامضة مبهمة لان التقليد يختلط بالتجديد اختلاطا لا يستبينه غير المتبصرين ! وهؤلاء لا يلمحون الجديد الا بين خيوط متشابكة تحتشد وتزدهم حتى تحتاج الى مجهر دقيق !! ونحن في هذا النطاق نسترشد بادب امريكا المعاصر ، فقبل القرن العشرين لم يكن من المستطاع ان نميزه تمييزا واضحا من الادب السكسوني ، اذ ان اتحاد اللغة بين بريطانيا وامريكا جعل الفوارق بين الادبين متضائلة ان لم تكن متوارية ! بل اننا الآن لا نفرق بين ادب امريكي او ادب انجليزي الا بسمات لا ترجع الى الاسلوب اكثر مما ترجع الى الغرض والموضوع ، فليس الادب الاندلسي بدعا في اتفاقه ! ولكن الاتفاق شيء والمحاكاة التقليدية شيء آخر دون نزاع !

ولا بد لنا في هذا النطاق من كلمة عن ادبنا العربي المهاجر بالامريكتين فان به اختلافا واضحا عن الادب العربي بالدول العربية ! وهذا ما كان يرجوه الدكتور احمد امين والدكتور شوقي ضيف واضرابهما ممن وصموا الادب الاندلسي بالتقليد ! والقياس مع الفارق كما يقولون ، لان ادباء العرب قد هاجروا الى امة حية ذات ثقافة وبيان ولها في الادب قواعد وشروح ، فاتصلوا بالتجديد الغربي اتصالا مباشرا جعلهم يتأثرون به ويبدعون قصائدهم المهجرية على نحو جديد !! واذا كان هناك فروق واضحة بين حركة التجديد في الادب العربي بالمشرق وموجة التجديد في الشعر المهجري بامريكا فان هناك اتفاقا بين الاصول الحية للتجديد الادبي لدى الفريقين ، فكلاهما يهتم بالتجربة الذاتية ووحدة القصيدة ، والبعد بها عن التقريرية الجامدة الى التأثيرية الموحية مما نضحت به الثقافة الغربية على الحركتين التجديديتين في الشرق والمهجر مع ان زعماء التجديد فيهما لم يتصلوا اتصالا مباشرا يوجب توحيد الرأي ، وتقرير الاتجاه ! هذا التأثير الواضح في الادب المهجري لم نجد مثيله في ادب الاندلس ! لان اسبانيا اللاتينية لم تكن ذات ادب يسيطر ويؤثر ! فاين يجد الادب العربي رافده الدافق ! وما حوله سراب لا يسمح بارتواء ! انه مضطر الى الاستعانة بادب المشرق استعانة لا تمحق كيانه الادبي كما يتصور بعض الغلاة ولكنها تدفعه الى المسير !!

لقد طال استماعنا الى من رموا ادب الاندلس بالتقليد والترديد ، وفي الضفة المقابلة اناس يصفقون له مهللين ، ويلمحون في روائعه بوارق الجدة والابتكار فيقفون عندها مطيلين والاستاذ الكبير علي الجارم في طليعة هؤلاء فقد كتب عن اعلام الادب الاندلسي امثال ابن زيدون وابن عباد وابن عمار سيرا تحليلية تنبض بالحركة وتتدفق بالحياة ثم ترجم قصة العرب في اسبانيا عن استانلي لين بول سعيدا ان راى امجاد آبائه تسيطر بقلم اوروبي منصف فنقلها الى ذويه بيراعه البليغ ! ثم تسمع الى الهجوم على ادب الاندلس يأخذ اذنيه من منابر عالية تحفها الثقة التامة فلم يصبر ان صاح في وجوه هؤلاء الناقدين .. ومضى على النقيض من الدكتور احمد امين يقول في مقاله عن الشعر الاندلسي بمجلة الكتاب ديسمبر سنة ١٩٤٧

« انا واثق من ان هناك فروقا بين الشعرين الاندلسي والمشرقي ، وانا نحس هذه الفروق حقا ، وانا مدرك من غير حاجة الى تعليل او فلسفة اني بعد قراءاتي الطويلة للشعرين الاندلسي والمشرقي استطيع ان المح الشعر الاندلسي وان اتبين خصائصه غامضة من وراء الضباب ، واعتقد ان الاديب الذي لا يستطيع ان يميز على وجه من الوجوه بعد طول المعاناة والمزاولة خصائص الشعر وسماته في عصوره المختلفة اديب خائب ضعيف الملكة له دماغ لا تثبت عليه الصور ، ان الشعر كالماء يأخذ لون انائه ، وهو مثل كل مخلوق حي نابض يتأثر بالبيئة التي هو فيها ، واذا كان هناك فرق بين شاعر وشاعر ، فاولى ان يكون هذا الفرق أبين واظهر بين شعر الموطن والموطن ، ان الشعر الجاهلي غير الشعر الاسلامي وهذا لا يماثل الشعر العباسي في خصائصه ، وشعر مصر غير شعر الشام والشعر المصري في عهد الفاطميين غيره ايام الايوبيين والمماليك » .

وهذا دفاع مخلص ولكنه الى الخطابة اقرب منه الى البحث المنهجي ، ولن ننتظر من مقال في مجلة سعة في التحليل واستطرادا في الاستشهاد ، ونفاذا الى اللباب ، اما الذي تكفل بذلك او حاول ان يقوم به جهد المستطاع ، فهو الاستاذ الدكتور احمد هيكل في كتابه عن الادب الاندلسي ، والدكتور هيكل يحمل الدكتوراه من اسبانيا في هذا الادب ويقوم بتدريسه في كلية دار العلوم اعواما متوالية كان من بعض آثارها كتابه هذا عن «الادب الاندلسي من الفتح الاسلامي الى سقوط الخلافة !» وقد اراد ان يحدد مواضع التجديد في كل حقبة ! وان يضع كبار الشعراء الاندلسيين في اماكنهم التي يراها من الابتكار والتقليد ! فاجتهد كثيرا فيما يريد ، ويخيل الينا ان هيامه بالادب الاندلسي قد دفع به الى التطرف والتماس الابتكار في كل موضع ! حتى فيما يتعذر معه الابتكار باتفاق ، ودليلنا – على سبيل المثال – انه اراد ان يعثر على الطريف الجديد في الفترة الزمنية التي سبقت عهد الخلافة وهي المعروفة بعصر الولاة ، مع ان هذه الحقبة كانت مسرحا

لهجرة الشعراء من المشرق واكثر من قال الشعر اذ ذاك – كعبد الرحمن الداخل – الذي اشتهر بشعر ، لا يمثل الاندلس في شيء ، لانه حين قال ابياته الشهيرة التي اتخذها الدكتور مثالا للتجديد :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة — تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى — وطول التنائي عن بنيّ وعن اهلي
نشات بارض انت فيها غريبة — فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي — يسح ويستمري السماكين بالوبل

«أقول حين قال ذلك كان وافدا من المشرق شاعرا يجري القريض في دمائه ويتدفق مع الدم في شرايينه ولم تنفحه الارض الجديدة بثقافة خاصة تدعوه الى التجديد الذي يريده الدكتور ! واين هذه الثقافة ؟ بل لو وجدت اذ ذاك ثقافة على سبيل الفرض ما تسنى له ان يرد حياضها وهو السياسي الداهية الذي ينتقل كل يوم من معركة دموية الى مؤامرة سياسية ، وقد راى الدكتور الباحث في هذه الابيات ما سماه بالتركيز العاطفي ، وهو في رأيه أمر جديد يستحدثه الداخل في دنيا الشعر ! ومع التسليم جدلا فقط بهذا التركيز العاطفي فهو مشرقي صافي الدم حر النسب غير هجين !! والدكتور هيكل يرى سمات هذا التركيز الجديد في ان الداخل لم يصف النخلة في طولها ولا في لونها ولا في ثمرها ولم يتخيلها ماردا ذا شعر طويل ولا شيخا ذا قوام هزيل وانما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية وقد جعل منها انسانا حيا يغترب وينأى عن الوطن ويحن الى الاهل وقد فرض بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنو ويناجيها في عطف » .

وتحليل الدكتور للابيات رائع بديع حقا ! ينم عن احساس صاف وذوق رائق ولكنه بعد ذلك شيء والتجديد شيء آخر اذ ان الشعر الاموي يعرف هذا التركيز العاطفي كما سماه ويعرض لنا قبل الداخل صورا منه اعمق وابعد من صورة النخلة فلديك مثلا عروة بن حزام وهو شاعر مخضرم اتى قبل الداخل بامد بعيد يقول عن ناقته :

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى — واني واياها لمختلفان
هواي امامي ليس خلفي معرج — وشوق قلوصي في الغدو يمان
متى تجمعي شوقي وشوقك تظلعي — وما لك بالعبء الثقيل يدان

وهي ابيات ذائعة مشتهرة ! وذيوعها المشتهر يغني عن ايضاح ما بها من التركيز العاطفي كما عناه الدكتور، وقريب منها قول شاعر الحماسة متحدثا عن ناقته :

أراد الله نقيك في السلامي — على من بالحنين تعولينا
فاني مثل ما تجدين وجدي — ولكني أسر وتعلنينا
وبي مثل الذي بك غير اني — أجل عن العقال وتعقلينا !

فقد ركب الشاعر ناقته واستمع اليها تئن وتحن ، وكان به وجد يشكو عقابيله فهو الاخر أنان حنان ، فتصور لدى الناقة ما به من شجن عاطفي ، ورآها تقاسمه لوعة الهوى وتباريح الصبابة فصاح بها :

فاني مثل ما تجدين وجدي — ولكني أسر وتعلنينا !

ثم استطرد في الموازنة استطرادا بديعا فذكر ان هناك فرقا واضحا بين الشاعر وناقته ! فهي معقولة تأخذها القيود فلا تستطيع ان تهيم على وجهها كما تشاء فترد منازل الاحبة ، وملاعب الذكريات ، اما هو فيجل عن العقال وشتان بين حنين لمطلق السراح وحنين لمغلول الجناح !

الا يجد الدكتور ما عناه بالتركيز العاطفي قد تقدم الداخل باحقاب ! على اني افهم ان يطلق الدكتور على هذا اللون من الادب تجسيما او تشخيصا اما ان يصفه بالتركيز العاطفي ، فذلك ما فاتني سره ، ولا ادري مدى انطباقه على ما يريد بالتجديد ! ومن ضروب التجديد التي ارتآها المؤلف في هذه الحقبة التقليدية ما سماه بالتجديد الموضوعي مستشهدا بقصيدة لابي المخشي يشكو عماه ، والقصيدة شعور متألم لزوج ضرير يرى ام بناته ترمقه في اسف حين تراه يتحسس موقع اقدامه ويتخشع لقائد يهدية السبيل! ولكنها مع ذلك لا تحمل من الجديد ما يريد الدكتور .

فاقل ما يقال عن العمى انه مرض حسي يستشعره الضرير بمرارة صارخة ! واصعب منه في مضمار الوصف الشعري مرض من الامراض المعنوية كالحسد او الغيرة او الرياء وقد وصفها شعراء الجاهلية وصدر الاسلام اوصافا تحمل صدق التجربة ، وتستعين بالتعبير الموحي مما يراه الدكتور من دلائل التجديد لدى الشاعر الاعمى ، واخشى ان اسوق امثلة كثيرة لما اريد فأطيل في غير مطال .

لقد تطرف فريقا التقليد والتجديد في قضية الادب الاندلسي تطرفا متوقعا غير مستغرب ، وقد اتفقوا جميعا مع هذا الاختلاف السافر – على انماط من التجديد وجدت بارزة في هذا الادب، ولعلها تنحصر في الموشحات والازجال والملاحم ، والابداع في وصف الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة، ولا بد لنا ان نقف فيما يلي من الصفحات وقفات نافذة لدى كل نوع من هذه الانواع بل اننا سنضيف اليها ما رأيناه من دلائل التجديد الاندلسي في النثر الادبي لا في الشعر وحده كما يريد بعض الباحثين ان يقصر عليه مجال التجديد ان وجد ! والحق ان لدينا ابداعا فائقا في الكتابة الادبية لدى بعض المهرة من الادباء ، وقد تغافل عنه الباحثون في هذا المضمار وهو بحاجة ملحة الى اضواء تشير اليه وتدل عليه، وسبيلنا ان نوجز القول في ذلك ، وحسبنا ان نحدد وان نوجه تاركين لارباب البحث المستوعب جانبا من الميدان الفسيح .

لقد اغفلت الحديث عن سيطرة المشرق النفسية مع اصالتها في باب يتحدث عن القديم والجديد لدى الاندلسيين ، ولكني تعمدت ذلك لافردها بالحديث في موضوع لاحق يراه القارىء عن كثب ! وهي بعد تحتاج الى مزيد من التبسيط !

محمد رجب البيومي
الفيوم – دار المعلمات

الخصم الخفي

للشاعر الهولندي المعاصر ادريان رولند هولست

ترجمة سعد صائب

ها قد مرت العاصفة
اما انا فسأظل احرس قابعا مضنى
كمن دفع للاعتراف بعزلته في غياهب الصمت

لقد مرت عاصفة الدهور
ففنى الخصم
وبان النهار شاحب الوجه ، ميتا
كأنه حقد قديم يتأمل ثأره
وما عتم نور الصباح ان رماني بلعنته ..

هكذا رأيتني وجها لوجه حيال ذاتي
بعد ان فرغ الزمن ، وتخلت عنه سائر الارجاء
وعافه الالم الغامر .

اما انا فما ان ابصرت ذاتي حتى لزمت صمتي
وراح الخصم ، بعد ان ران الصمت على الصخور
يغني وحيدا ، كمن اقسر على وحدته ..

هوذا البلد النائي
هي ذي هالة الحلم والليل
هو ذا الشاطىء الذي اعرض عن الحياة
من اجل احفاده الميامين
هو ذا الشاطىء الذي شد ما رافقته الحياة ذاتها
فراح يداعب المد والجذر
ويلهو بالامبراطورية المنيعة ..

هو ذا فناء العوالم الحقيقي ..
من هنا ... من هنا يبدأ الخصم جياش الفوارب
من هنا .. من هنا يغني رنين الاجراس الحزين
سكرات فناء العالم
من هنا يغني الرنين غياهب الصمت
بعد ان اقفر الشاطىء من السفن
التي كانت تمخر عباب الخصم الخفي
عباب الخصم الداجي .. عباب خصم الروح
الذي امسى شاطئا لهاتيك السفن ..

من تراه يعشق حلمه الاثير
اعنف من عشقه الحلم الذي يند عن سواه
ولا ينى يراوده ؟.
لكأن نداء الخصم يحول دونه ودون فرحته
فتراح يصدح عاليا بالغناء
وكأنه اشياء جمة لا رابط بينها
بعد ان يتلاشى في حلمه القديم فيفرقه حلمه الاثير

كلا .. كلا .. لن يكون ثمة اي امرىء يجيء اليه
الا من عثر في فؤاده منذ مولده ، على قرارة الموجة
والا من افتقد ذاته ، كما يفتقد الماء والريح ذاتيهما
لان ثمة اغنية تجوز دوما وحدته
مقبلة من جانب الريح والضياء الاخر
آتية مع الساعات الفارغة
وهي تدوي من حوله حذرة .. ثم لا تفتأ ترين عليه
وتجثم فوق فؤاده ، لتنقل نداءه عبر دمه
كأنها الريح تعري الخصم من زبده
فتراها وهي تحمله عبر الساعات الفارغة
تنوء به وهو فاغر الفم صداح العينين ..

لكأنه امرؤ عابر الح عليه ضياعه
فعاف حتى آماله وامانيه
واعتنق حتى من ملاذه ومأواه
انه امرؤ عنا لاحلامه .. وذاب في افياء الظلال القديمة
التي ما برحت تلازم العالم لتذوبه في نشوته الطائشة
وكأنه ورقة تئن في مهب ريح العصور السوداء
او كأنه ثلج حمل على اكف الليل
او جلف حط على جناح طائر
راح يهوم فوق الاودية الحالكة
بعد ان دعاه الخصم اليه ...

تلك هي اغنيتي الصداحة
تلك هي صرختي العميقة النابعة من فرحي
وما غنيتها الا لارهف سمعي الى نداء هذا الخصم
كيما يغيبني تحت اثباجه .. فينجلي فيه ليلي وفجري
ولئن عانقت الرغبة فؤادي
فسيهدي نداء الخصم دربي ، عبر اجداث الموتى

ان اذني تدويان ، وان ناظري يعمى
وتفرغ في الريح حشاي
فيمضي الالم والرغبة لتوهما ..

هكذا تعمق البحار
البحار التي ركبها الغم واعتراها الهم
هكذا تعمق ثم تتحطم مع شتيت اسراري الخبيئة ..

ايها البحر !... ايها البحر الخصم !
لانت غريب .. غريب ...

دمشق — سعد صائب

المرح والهزل في قصر العدل في فرنسا

مسرح قصر العدل

بقلم جان بول لاكروى   ترجمة سمير شيخاني

* * *

مع الاحتفاظ للعدالة عندنا بكل ما تستحقه من اعتبار واحترام ، اسمح لنفسي بالقول انها ، قبل اي شيء ، مسرحية . فقصر العدل هو مسرحنا القومي السادس . (الخمسة الاخرى هي الكوميدي فرانسيز ، والتياتر دو فرانس ، والمسرح القومي الشعبي ، والاوبرا ، والاوبرا - كوميك) .

فيه يجري التمثيل كل يوم قبل الظهر ، وبالملابس الرسمية . فيه تمثل التراجيديا والفودفيل . ولكن ليس بالتناوب ، كما هي الحال في الكوميدي فرانسيز ، بل في آن معا !..

التراجيديا في محكمة الجنايات .. اسخيلوس ، وراسين ، وشكسبير . « تيميس » ، آلاهة العدالة بحذاء ذي نعل عال جدا كالذي كان يلبسه ممثلو المآسي عند الاقدمين .

وعلى مرمى بيضة او بندورة ، بعد اربعة ابواب ، محكمة الجنح : الفودفيل . جورج فيدو ، وجورج كورتلين ، ومارسيل آشار ، واندريه روسان . « تيميس » تنتعل « البابوج » ، لا تزعج نفسها .

ولنبدأ بمسرح الجنايات !.. في محكمة الجنايات الدور الرئيسي هو من حق الرئيس : انه دور «الاب النبيل» . ان رئيس محكمة الجنايات الممتاز ينبغي ان يتمتع ببعض المزايا الضرورية . ينبغي له قبل كل شيء ان يكون عادلا .. والا يقلد ، مثلا ، ذلك القاضي في الامبراطورية الثانية ، وكان يدعى دوليفو . كان كلما افتتح جلسة يسحب من جيبه ورقة مطوية ينشرها امامه جهارا وعلانية ، وهي تحمل الحكم في القضية المعروضة على المحكمة مكتوبة سلفا ، مع كل « الحيثيات » ... المستند اليها !

والقاضي الممتاز ينبغي له كذلك ان يكون لبقا . وهذا مثال على انعدام اللباقة : الكلام الذي تلفظ به الرئيس لوبوس ، احد قضاة العصر الجميل . كان يقاضي مجرما ساديا ، فقال له بنبرة محزنة :

— ان تغتصب ضحيتك ، معقول .. ان تذبحها ، لا بأس .. ولكن لماذا قطعتها اربا اربا ؟!

واللباقة لا ينبغي ان تستبعد الحزم . ولم يكن يعوز الرئيس كارتييه شيء من ذلك . ففي جريمة اغتصاب اخرى ، وعندما اوشكت المناقشة ان تصبح وعرة المسالك ، قرر ان تصبح الجلسة سرية بصورة جزئية ، فقال وهو ينظر الى مقاعد النظارة :

— ارجو جميع النساء الشريفات ان يتفضلن بمغادرة القاعة !

ولم يتحرك احد . فأردف يقول :

— والان بعد ان خرجت النساء الشريفات ... ليخرج الحرس الاخرين !

كان كارتييه احد تلامذة الرئيس الشهيد دو هارلاي الذي خاطب ، حوالي سنة ١٦٠٠ ، بهذه العبارات ممثلي العدالة ، ولم يكونوا آذانا صاغية : « لو ان هؤلاء السادة الذين يتكلمون يتفضلون بالكف عن احداث الجلبة التي يحدث مثلها اولئك الذين يغطون بالنوم ، فان ذلك ربما اتاح السمع لهؤلاء الذين يصغون ! »

واثر عن الرئيس دو هارلاي انه كان معتادا ان يصغي الى المرافعات وهو مغمض عينيه . واعتقد محام يدعى اونيكس دو جوفنيل انه نائم ، فبلغت به الجراة ان «تمنى لهيأة المحكمة نوما هادئا . » ففتح الرئيس عينيه على الفور واجابه ببيتين من الشعر فحواهما ان « المحكمة وهي تستيقظ تأمر بوقفه عن ممارسة مهنة المحاماة لمدة سنة كاملة ! »

ذلك انه ليس محظورا على رئيس محكمة الجنايات ان يلجأ الى السخرية ... ولقد استحق لقب « السيد » في هذا الميدان الرئيس ليسير . فعندما كانت التهمة المسندة الى احد تقتصر على مجرد الحدس والتخمين ، حتى لو كانا حدسا وتخمينا خطيرين ، وتصدر هيئة المحلفين قرارها بالبراءة ، كان هذا القاضي يلجأ في اعطاء حكمه الى نصر طريف هو التالي : « ايها الصديق ، المحكمة تبرئك ، ولكن لا تعد ! »

وهذه كلمة طريفة اخرى لليسير ، خاطب بها احد المحامين بعد اصداره الحكم على موكله بالموت :

— لقد قدرت كثيرا جهودك ، ايها الاستاذ العزيز ، فلقد فعلت اقصى ما يمكنك !

هذا بعض ما هناك عن السخرية ... فالى شيء من النكتة الآن ..

في محكمة جنايات السين كانت تجري محاكمة عصابة لصوص مؤلفة من عشرة اشخاص ، متهمين بالسرقة المسلحة . وكانت احدى الضحايا من الشهود في القضية ، فقالت : « لقد لاحظت اختفاء خمسين قطعة ذهبية . فصاح المتهم « بانس » مغضبا ، ثائرا :

— كاذبة !.. لم يكن هناك سوى اربعين قطعة فقط !

فما كان من الرئيس ديماز الا ان قال بكل هدوء ولطف :

— مهلا ، لا تشتم الشاهدة ، حسنا ، انها مدينة لك بالفرق !

غير ان القضاة ينبغي لهم ان يحترسوا من التنكيت

اغنية

***

ترنو .. فماذا الوهج واللهب ؟! — وبمقلتيها تلعب الشهب
واذا مشت فالدرب اغنية — وعلى خطاها يتكي الهدب
تشدو الطيور على مباسمها — يا للشذا واللحن ينسكب
عينان يا أسطورة ضحكت — ياما حكت لي عنهما الكتب
وغمست اجفاني بوهجهما — وعلى الجفون تكوّم التعب
فطويت اشرعتي على ظمأ — والى جواري الماء والقرب
هذي المليكة لا عهود لها — بين المحال وقلبها نسب

مرمريتا – سورية — طلعت يازجي

العفوي ، احتراسهم من النار . وكثيرون منا يعرفون قصة الرئيس بوباردان . فلقد تقدمت فتاة في الثالثة عشرة من عمرها مرتجفة من حاجز الشهود للادلاء بشهادتها ، قال لها بكل طيبة وعلى سبيل التشجيع :

– تقدمي ، يا فتاتي ، لا تخافي ، فالمحكمة تحب كثيرا الفتيات .

وسمعت بعض الضحكات في ارجاء القاعة . فاردف القاضي بوباردان قائلا برسم ذوي النيات السيئة :

– آه ، ولكن المحكمة كذلك تحب كثيرا الصبيان !

بعد « الاب النبيل » ، هوذا الدور الثاني في محكمة الجنايات : الفزاعة !.. او « الذئب الكبير الخبيث » .. المدعي العام .

ان مهمته تنحصر في طلب احكام الاعدام ، او على اقل تعديل احكام السجن المؤبد مع الاشغال . لذلك تراه يتحفظ في التنكيت ، او اذا صدرت منه نكتة فانما تكون عن غير قصد . فالمدعي العام ترواز – ربول ، لبضعة عقود خلت ، قد اثار عواصف كثيرة من الضحك . صحيح انه كان اكثر الناس رزانة وجدية ، ولكنه كان يتمتع بعبقرية حقيقية في الكذب ، والغباوة ، وزلات اللسان . وهذا نموذج من اقواله في مطالعته في قضية سوليلاند : « في تلك اللحظة شعر المتهم بحاجة ملحة ، فذهب لقضائها بنفسه ... »

وفي قضية ستاينهايل ، ولكي يوضح قتل زوج المتهمة ، قال : « منذ زمن بعيد لم يعد ميزان حرارة حبهما على المستوى نفسه الذي كان عليه من قبل !.. »

وكان معينا لا ينضب .. قال المتهم مبررا جريمته : « ان الجوع يخرج الذئب من الغاب » . فاجابه بقسوة : « يا صديقي ، الذئب يعمل عندما يجوع ! »

وكان المدعي العام اندريو كذلك من فئة « مصوري او نحاتي الحيوانات » .. وهذه خاتمة احدى مطالعاته : « ان هذا المتهم ، ايها السادة المحلفون ، نمر . وانا ، عندما التقي نمرا في الطريق ، فانني اقتله ! »

وفي فصل الزلات اللسانية تبرز احدى الروائع ، وبطلها المدعي العام كروبي .. فقد كانت احدى عصابات اللصوص ماثلة امام المحكمة .. فقال في مطالعته : « ايها السادة المحلفون ، انتم ستدينونهم جميعا ، وباقصى العقوبة ! ذلك بانني استطيع القول انني لم أر في حياتي عصابة لصوص مثل العصابة التي يجلس افرادها على مقاهد ... هيئة المحلفين ! » لقد زل لسانه !

وهذه في ختام فصل الغباوة والخطأ نادرة جاءت على لسان المدعي العام كازابيانكا . فقد كان يتلو مطالعته في قضية فظيعة (جريمة قتل مع خصاء) ، فقال : « ايها السادة المحلفون ، لن تأخذ الشفقة والرحمة على هذه المراة التي بلغ بها العنف انها بعد قتلها عشيقها ، لم تتردد في انتزاع خصيته ... » وصمت لحظات يسيرة ، ثم استأنف قائلا بصوت مأسوي : « ... اللتين كان يحملهما في ذلك اليوم ! »

سمير شيخاني



نقولا يوسف

اسماعيل ادهم الباحث الناقد

في الذكرى الخامسة والعشرين لوفاته

بقلم نقولا يوسف

خلف الكاتب السكندري اسماعيل احمد ادهم (١٩١١ - ١٩٤٠) عددا من المؤلفات المطبوعة في النقد الادبي ، والعلوم الرياضية والطبيعية ، كما نشر الكثير من المقالات الادبية والابحاث العلمية ، في الصحف والمجلات ، وبخاصة في مجلات « الحديث » بحلب ، والمقتطف والرسالة بالقاهرة ، والامام وادبي بالاسكندرية .. وشارك في الحركة الثقافية السكندرية بمقالاته ومحاضراته ومساجلاته خلال الثلاثينيات ، وتعرف وراسل الكثيرين من الادباء العرب والمستشرقين .. ولم تطل حياته كي يتابع جهوده الادبية اذ مات قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره ..

واهم ما نشر له في حياته من المؤلفات العربية : اولا : في النقد الادبي :

- دراسة عن « احمد زكي ابو شادي - الشاعر » - (نشرت اولا عام ١٩٣٦ بمجلة « ادبي » التي اصدرها ابو شادي بالاسكندرية في ذلك العام) .. ودراسة مثلها بالانجليزية عن ابي شادي الحقت بمجلة «ادبي» ١٩٣٧ .

- « الزهاوي الشاعر » - نشر اولا بمجلة « الامام » بالاسكندرية (لصاحبها ابو شادي) في ابريل ١٩٣٧ .

- « اسماعيل مظهر - المفكر المصري » - ظهر مسلسلا بمجلة « الحديث » ١٩٣٨ .

- « طه حسين » - نشرته له مجلة « الحديث » بحلب في عدد خاص (ابريل ١٩٣٨) ، مقسما الى ثلاثة فصول : الاول عن حياة طه حسين وتحليل شخصيته ، والثاني عن مذهبه في النقد الادبي ، ومذهبه الفني . والثالث معتقده ببعض ارائه وشيء عن اراء معاصريه فيه .

- « خليل مطران » - ظهر تباعا بمجلة « المقتطف » بالقاهرة في عامي ١٩٣٨ - ١٩٣٩ ويعده الكثيرون اوفى كتبه النقدية وامتعها . ولم يزل مرجعا للنقاد الذين يكتبون عن الشاعر الكبير مطران .

وقد اثار بعض الاراء الواردة به نقاشا في الصحف ، ومنها الرأي الذي نقله ادهم عن بروكلمان في ان الشاعر عبد الرحمن شكري تأثر في حركته الشعرية التجديدية بمطران ، ونفى شكري هذا التأثر في بحث مستفيض بالمقتطف ، وذكر العوامل والمؤثرات التي كونت شخصيته كشاعر .. وعاد ادهم يكرر رايه بمجلة الرسالة بالقاهرة (١٩٣٩) ، ورد عليه شكري في العدد التالي (١) .

- « توفيق الحكيم » - كتاب اشترك في تأليفه مع المرحوم دكتور ابراهيم ناجي وطبع عام ١٩٤٥ .

وثانيا : في البحث العلمي :

- بحث في « نظرية النسبية » - نشره مسلسلا بمجلة الرسالة في عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦ .

- بحث في « حرية الفكر » مجلة ادبي ١٩٣٧ .

- « رسالة محمد » ١٩٣٧ .

- رسالة بعنوان : « لماذا انا ملحد » نشرها تحديا للذين اساءوا الظن بايمانه .

والمعروف أن انصرافه الى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية ، والى التأليف في النقد الادبي كانت تشغله عن البحث في المسائل الدينية ، الى انه كان في قرارة نفسه يؤمن بالقدرة الالهية التي ابدعت عجائب الوجود واسراره، والقى مرة محاضرة عن « الغاز الوجود » بجمعية الشبان بالاسكندرية في فبراير ١٩٣٧ ومع ذلك اثارت تلك الرسالة غضب المحافظين ، وعلى صديقه الشاعر ابي شادي الذي زعموا انه عاونه على كتابتها ، فنشر ابو شادي رسالة اخرى بعنوان : « لماذا انا مؤمن » ..

والى جانب هذه المؤلفات التي نشرها اسماعيل ادهم بالعربية في الاعوام الخمسة الاخيرة من حياته القصيرة ، فقد كتب ايضا الكثير من المقالات العلمية والادبية في عدد من المجلات العربية والاجنبية ، مما لم يجمع في كتب . وهو في كل ما كتب ونشر ، لم تعزه الصراحة وحرية الراي ، ولم يفته التحليل والمقارنة ، ودقة البحث على النهج العلمي ، وذكر المراجع والمصادر التي نقل عنها في هوامش صفحاته . ومع ذلك فقد أخذ عليه الاديب المرحوم دكتور بشر فارس (توفي في فبراير ١٩٦٣) ، ارتجاله المصادر في بعض ما يشير اليه منها ، كذكره لمجلة وهمية

يصدرها استاذ بجامعة السوربون (٢) ، كما انكر عليه حيازته لقب دكتور . .

ويتضح من رسائله الخاصة الى اصدقائه ، انه كان يعد بعض المؤلفات في اللغة العربية وفي لغات اخرى ، وبينها دراسات عن الادباء العرب من معاصريه ، كما تصور رسائله هذه ما كانت تمتلىء به نفسه من آمال واحلام في دنيا التاليف والترجمة والنشر ، انهارت جميعا بموته الباكر ، ويقينا انه لو طال به العمر لاخرج ما كان يرجو من مؤلفات .

فقد كان شابا لا يفتر نشاطه ، يقرأ الكتب والمجلات العلمية والادبية في نهم ، ويتابع الحركة الادبية العربية المعاصرة ، ويسعى الى مقابلة الادباء ومراسلتهم . . ثم ينشر الكتب النقدية والتاريخية بالروح العلمي المنزه عن كل غرض غير وجه الحقيقة كما يراه ـ اذ كان ذا عقلية علمية رياضية لا يكف عن الشكوى من قلة ما تصل اليه يده . وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه عن «طه حسين» عام ١٩٣٨ (٣) .

« وارجو الا يغيب عن فطنة حضرات الادباء والناقدين الصعوبات التي نلقاها في الكتابة من عدم معاونة بعض المفكرين والادباء لنا في بحثنا بدلالتنا على المراجع التي عرضت لهم ولمؤلفاتهم بالكتابة ، وبتوجيههم انظارنا لبعض آثارهم غير المعروفة ، وبمدهم لنا بتفاصيل حياتهم ، الشيء الذي جعلنا نشكو اكثر من مرة في جرائد الاستشراق ، هذا الانصراف عن المعاونة في اظهار ادبهم وتفكيرهم للعالم الغربي . وارجو ان اوفق بدراساتي لغاية نبيلة ، في ايقاف الغرب الجاهل للشرق ، على ادب الشرق وتفكيره ، فيحل السلام بدل الخصام ، بين جناحي الانسانية . وآمل ان يغير ادباءالعربية موقفهم منا ، ويعاونوننا على هذا الغرض النبيل . . »

وكانت السنوات الخمس الاخيرة من حياة اسماعيل ادهم (١٩٣٥ ـ ١٩٤٠) اكثر سني حياته عملا وجهدا وانتاجا ، وفيها نشر معظم كتاباته . . ثم هده الجهد وحطمه مرض الصدر ، وحاصره النقاد والمحافظون والمحققون ، ونسب اليه البعض الضعف في الكتابة ، والاستعانة باقلام الاصدقاء ، والعجز عن التكسب من اية مهنة ، والزيغ عن الايمان ، وعندما شبت الحرب العالمية الثانية اتهمه الانجليز المحتلون واعوانهم بممالأة الترك والالمان ، وغيرهم بالاتصال بالمستشرقين الروس . . وفي مساء يوم من اغسطس عام ١٩٤٠ كتب رسالة وضعها في جيبه ، ثم ذهب الى شاطىء « جليم » برمل الاسكندرية ، والقى بنفسه في البحر ومات غرقا ، وانتشل جثمانه في اليوم التالي ، وشيع جثمانه خمسة اشخاص ـ منهم شقيقه والشاعر احمد زكي ابو شادي ـ وهكذا شاء ان تكون حياته وموته قصة مليئة بالغوامض . .

والنقاد في حديثهم عن الكتاب ـ او عن غيرهم من الاعلام ـ فريقان : فريق يقنع في بحثه بآثارهم الباقية وحدها ، دون حاجة الى البحث عن حياتهم . . وفريق يرى في حياة الكاتب واحداثها ، تفسيرا لاعماله ومنبعا لمجرى نتاجه ، مثلها مثل الشجرة المسؤولة عن ثمارها بتربتها وجوها ونشاتها . .

واذا جمعنا بين الرايين نجد ان الكاتب اسماعيل ادهم ولد بمدينة الاسكندرية في ١٧ من فبراير ١٩١١ ، ونشا بها وقضى معظم حياته ـ وهي التي لم تطل كما سلف غير تسعة وعشرين عاما ـ وتلقى بمدارسها الابتدائية تعليمه الاول ، وامضى نحو عامين بمدرستها التجارية المتوسطة ، ثم خرج من المدارس الى ميدان الحياة ، يقرأ ويبحث ويتثقف ويكتب . . وساعده ذكاؤه الفطري ، وشغفه بالاطلاع على الكتب العلمية ، على التزود ببعض العلوم الرياضية والطبيعية . . ثم راح يقرأ في التاريخ والادب ، والتراجم والسير . . ويقول : « . . ولقد اهتممت بداءة ذي بدء بدراسة تيارات الثقافة وموجاتها في العالم العربي ، ووجهت لها جل عنايتي ، ولم ينازعني اهتمامي بها الا اهتمامي بدراسة العوامل والمؤثرات التي تمضي بالمجتمع العربي في سلسلة من التطورات ، فتتمخض عن تلك الاثر التي تلمسها واضحة في ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر . . . »

واحتجب ادهم عن مسقط راسه فترة من الزمن ثم ظهر بمنتدياته حوالي عام ١٩٣٤ . . ويقول انه تغيب في تركيا للدرس والاتصال بالمعاهد العلمية ومراسلة المستشرقين . . وانه وضع هناك كتابا سماه : « الرياضة والطبيعة » ، ومؤلفا بالتركية عن : « تاريخ الاسلام » ، وانه اشرف على طبع كتاب « محمد » للمستشرق الالماني سبرنجر واضاف اليه بعض الملاحظات والتعليقات . . كما يقول انه اتصل بجامعات روسيا والمانيا . . .

ومع انه كان سكندري المولد والنشأة والطابع ، عربي اللغة ـ وخرج من اسرة متدينة متوسطة الحال تعيش في حي الجمرك بالاسكندرية ـ الحي الوطني الشعبي القديم ـ وكان والده احمد ادهم ووالدته من اهل الاسكندرية ، فقد كان جده اسماعيل ادهم ملما باللغة التركية ويعلمها في بعض المدارس ، وورث تركيته هذه عن ابيه ابراهيم ادهم باشا رأس هذه الاسرة ، وكان تركي الاصل استوطن الاقليم

---

(١) انظر كلمة اسماعيل ادهم بمجلة (الرسالة) ١٠ ابريل ١٩٣٩ ـ عدد ٣٠١ ص ٧٢٥ ـ ورد شكري بالرسالة ١٧ ـ ٤ ـ ١٩٣٩ ـ عدد ٣٠٢ ص ٧٩٢ ـ (ولبروكلمان كتاب عن مشاهير الادباء العرب المحدثين استعان به ادهم) . وانظر المساجلات بين الادباء عن ادهم بمجلة « الرسالة » بالقاهرة ١٩٤٠ ، المجلد الثاني السنة الثامنة . وعدد مجلة « الحديث » الخاص بادهم بعد وفاته ١٩٤٠ . (٢) مقالة لبشر فارس بمجلة « الرسالة » بالقاهرة ـ ١٩٣٩ ـ بعنوان « قضية ارتجال المصادر » . (٣) عدد خاص من مجلة « الحديث » بحلب (ابريل ١٩٣٨) توطئة .

المصري ، وعين في عهد محمد علي محافظا للقاهرة ، ووزيرا للمعارف والحربية ، ثم ترك لاولاده بعض الممتلكات بقي منها البيت الذي كان يقيم به اديبنا اسماعيل أدهم مع اخوته حتى نهاية حياته .. وهو البيت الذي كان يكتب فيه ابحاثه ويرسل منه خطاباته (بشارع موطش باشا بحي الجمرك بالاسكندرية) ..

فكان اسماعيل ادهم ملما ببعض اللغة التركية والالمانية والانجليزية ـ الى جانب لغته العربية .. وساعده ذلك على الاتصال بالمستشرقين ممن كان يحب مؤلفاتهم ـ وبخاصة ابحاثهم العلمية والاسلامية والعربية .. وتأثر بمنهجهم العلمي في البحث والتمحيص والتعليق، وحاكاهم في التنقيب عن المراجع والاسانيد ، بل لقد اسدل لحيته وعد نفسه ـ وهو الشرقي ـ من المستشرقين !. وفي ذلك يقول صديقه دكتور أبو شادي : « الدكتور اسماعيل احمد ادهم ، اكثر من شخصية ، فهو عالم رياضي نابغة ، وهو بحاثة بارع في التاريخ ، وهو ناقد نافذ البصيرة ، فهو في حكم المستشرقين والمستعربين، وتجد في اسلوبه الصراحة وحرية الفكر ، ودقة التقسيم العلمي ، والنقد المستقصى ، والترفع عن السفاسف والمنابذة ، والتشبث بما انتهى اليه من حقائق .. »

وعاصر اسماعيل ادهم تلك الحركة الثقافية التي نشطت بالاسكندرية في الثلاثينيات ، قبل ان تركد مع نشوب الحرب العالمية الثانية وضرب الاسكندرية .. ففي تلك الفترة عمد ادباء هذه المدينة من مختلف الوظائف والمهن والاجناس ، الى تأليف الجماعات الادبية ، وعقد الندوات والمهرجانات والحفلات في انديتها ، ونشر نتاجهم واخبارهم في صحفها الاقليمية كالبصير ، ووادي النيل ، والسفير ، وغيرها من الجرائد والمجلات العربية .. وكان من تلك الجماعات : «جماعة الادب المصري» التي اقامت في ديسمبر ١٩٣٥ مهرجانا في ذكرى البارودي .. و « اتحاد الادب العربي » الذي اقام في الشهر نفسه حفلا في الذكرى الالفية على وفاة المتنبي ، و « جماعة نشر الثقافة » المنشأة عام ١٩٣٢ وعاشت نحو ثلاثين عاما .. و « جماعة أصدقاء الفكر » ١٩٣٣ .. و « جماعة اصدقاء الفن » و « رابطة الموسيقيين » ، و « جماعة دانتي الجيري ـ الايطالية » ، و « جمعية بتولوميه » اليونانية ، و « مدرسة الفنون الجميلة الاهلية » .. ونادي « الاتيلييه » ... الى جانب الاندية والجماعات القديمة .. وجذبت هذه الحركة الثقافية السكندرية الكثيرين من ادباء القاهرة ومدن الاقطار العربية، فاسهموا في نشاطها بالمحاضرة والاحاديث ولمع خلال تلك الفترة كثير من اسماء الكتاب والشعراء من العرب والافرنج، السكندريين والزائرين .. وتعرف اسماعيل ادهم في تلك الجماعات الى عدد من ادبائها ، وعرف مؤلفاتهم ، وانهمك في الكتابة النقدية ..

وكان من زوار الاسكندرية في خريف ١٩٣٤ ، الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » بحلب ، وعرف بها اسماعيل ادهم ، وفتح له صدر مجلته ، فنشر بها ادهم عددا من الابحاث ، منها مقالاته عن اسماعيل مظهر ١٩٣٨، وأفردت « الحديث » عدد ابريل ١٩٣٨ لكتابه عن « طه حسين » مصدرا بمقدمة عن ادهم ومؤهلاته وشهاداته ونشاطه الادبي في الشرق والغرب ، وهي المقدمة التي رأى فيها بعض النقاد الكثير من المبالغات والمغالطات ، ورأى البعض انها مستمدة من المرحوم ادهم نفسه الذي كان يتظاهر بالاستعلاء وحيازة المؤهلات والالمام باللغات ، تحديا لناقديه ومعارضيه .. كما افردت مجلة « الحديث » عددا خاصا لذكراه عقب وفاته عام ١٩٤٠ شارك في تحريره بعض اصدقاء الفقيد الاوفياء ..

وكذلك عندما انتقل الشاعر ابو شادي من القاهرة الى الاسكندرية عام ١٩٣٥ ليعمل بكتريولوجيا في مستشفاها الحكومي ، ويسهم في نشاطها الثقافي ، وينشيء بها مطبعة، ثم يصدر عام ١٩٣٦ مجلتيه الادبيتين : «الامام» و «ادبي» ويتبعهما بمجلة « مملكة النحل » ورابطتها ، ويكون «رابطة الادب الجديد » ـ كان اسماعيل أدهم اول من رحب به بالاسكندرية ، وصادقه واخلص له الود الى نهاية حياته .. كما كان ابو شادي اكثر الادباء رعاية ومعاونة ووفاء لادهم ـ ففتح له ابواب مطبعته ومجلاته واختاره « سكرتيرا » لرابطة الادب الجديد ، ومعاونا له في تأسيس « جماعة الادب المصري » .. وفي تأليف « رابطة اللوتس » بجمعية الشبان بالاسكندرية ، وفي المهرجانات والمحاضرات والمناظرات التي كان يقيمها ابو شادي في اندية الاسكندرية وحيث القى ادهم بعض المحاضرات ، منها محاضرته السالفة الذكر عن : « الغاز الوجود » ..

ويسجل ادهم رعاية صديقه ابي شادي ، واصدقائه الاوفياء في رسائله الخاصة ، وفي قوله بمقدمة كتابه عن « طه حسين » ١٩٣٨ :

« ولا يسعني هنا الا ان اشكر نفرا من مفكري وادباء العربية وابنائها ، اهتموا لمباحثي ودراساتي ، وعملوا كل الجهد في نشرها وتعميمها أخص بالذكر منهم : صديقي الدكتور احمد زكي ابو شادي ، والاديب الشاعر حسن كامل الصيرفي ، والاديب محمد امين حسونه ـ من ادباء مصر ، والاديب سامي الكيالي محرر «الحديث» بحلب» .

* * *

ذلك مجمل حياة الكاتب اسماعيل ادهم التي شابهت الشهاب الساطع والسريع الانطفاء .. وما دمنا نجد في المقالات والتعليقات التي نشرها عنه النقاد قبل وفاته وبعدها ، من المتناقضات والروايات المعتمدة على السماع ، ما ضاع خلاله الكثير من الحقائق ، كان علينا ان نبحث عن المراجع التي يكشف فيها الكاتب عن مكنونات نفسه ، اعني

المذكرات الشخصية والاعترافات ثم الرسائل الخاصة المكتوبة للاصدقاء .. فهاهنا يرسل الكاتب نفسه على سجيتها ، ولا يتأنق ولا يتكلف الا فيما ندر ، ولا يحسب حساب المناقشة او المؤاخذة ، الى جانب ما يختفي بين السطور من اشارات ورموز يدركها الناقد اللبيب .. وهذا ما يدفع المطابع في اوروبا الى نشر مذكرات المشاهير ورسائلهم فيتلقفها النقاد كل يوم ، ويلقون على تراجمهم ونقدهم اضواء جديدة .. ونتساءل هنا اخيرا مع القائلين بأن الرسائل الخاصة ، ملك شخصي للمرسل اليه لا يجوز نشره حتى بعد وفاة كاتبها بسنين ، بل يحل له اعدامه : أكان الافضل ترك الترجمة لحياة انسان ، تتخبط فيها الحقائق والاوهام ، ولا نستعين ببصيص من الضوء ينير لنا الطريق ويكشف لنا عن جديد ؟ ـ عالمين باننا بشر وان الكمال لله وحده ؟..

ولقد مضى على وفاة صديقنا المرحوم اسماعيل ادهم ، خمس وعشرون سنة ، وانتقل الى رحمة الله من اصدقائه: ابراهيم ناجي عام ١٩٥٣ ، واحمد زكي ابو شادي ١٩٥٥، ومحمد امين حسونه ١٩٥٦ ، وخليل شيبوب ١٩٥١ ، وصديق شيبوب ١٩٦٥ ... وغيرهم .. واحتجب بعد وفاتهم الكثير من الحقائق غير المنشورة ، والرسائل الخاصة المستورة .. ولم يترك واحد من هؤلاء فيما نعلم مذكرات شخصية ، ولم يبق امامنا غير رسائلهم الخاصة التي لم تمزقها الايدي ويبتلعها الزمن ..

وقد كان صديقنا الكاتب المرحوم محمد امين حسونه مولعا بمراسلة الكثيرين من الادباء العرب والمستشرقين ، ويستعين برسائلهم احيانا في مقالاته النقدية وتعليقاته الصحفية ، وكان يحتفظ ببضع مئات منها في مجموعات منظمة ، كان بينها مئة رسالة وتسع من المرحوم احمد زكي ابو شادي ، وثلاث عشرة رسالة من اسماعيل ادهم ... وكنا ذات يوم نتحدث عن صديقنا الراحل ادهم ، فاطلعني على رسائله هذه ، وعلى ما ورد عنه في رسائل ابي شادي .. ونسخت منها المقتطفات التالية الخاصة بادهم ـ بالرغم من بساطتها ـ تنشر هنا طبق الاصل لاول مرة ـ لعل فيها بعض الاضواء ، ولعلها تمهد الطريق امام نشر الرسائل المطوية الاخرى التي يحتفظ بها اصدقاء الفقيد :

ففي الرسائل التي بعث بها ذلك الرجل العطوف النبيل ـ المرحوم الدكتور ابو شادي فيما بين ١٩٣٧ ـ ١٩٤٠ خلال اقامته بالاسكندرية ، الى صديقه المرحوم محمد امين حسونه على عنوانه بمصر الجديدة يقول :

الاسكندرية ـ الجمعة ١٩٣٧/١/٢٩

« ... زارني الدكتور ادهم منذ ساعة وهو ممتقع الوجه لانه كان معتل الصحة . وقال لي انه تلقى رسالة لطيفة منك . وانه بعث اليك بنسخة من رسالته حسب وعده . كما ارسل الباقي لديه من النسخ (وهي اربعة) الى اهم العناوين التي ذكرتها له (لا الى كلها) وفي المقدمة صديقنا الدكتور جرمانوس . وعلى كل حال ، فهو ينتظر ان يقوم الناشر باصدار طبعة احسن من هذه في الصيف المقبل . وقد اقسم يستفيد ماديا من الترجمة ، ولكنه كما خبرته لا يهتم بالمادة بتاتا ، وهو المكاتب والجمعيات . وسيلقي محاضرة علمية عن « ألغاز الوجود » في « جمعية الشبان المسيحية » في منتصف فبراير المقبل بالاسكندرية ، بصفته سكرتير « رابطة الادب الجديد » ـ تمشيا مع حركة نشاطنا الجديدة التي اعلنا عنها في عدد يناير من « الايام » ... »

المخلص دائما ابو شادي

الثلاثاء ١٩٣٧/٤/٢٧

« ... الدكتور أدهم شاكر لك اهتمامك بكتابه : « الزهاوي الشاعر » وقد سرني عناية الصحافة به عناية طيبة . وقد ذكرته مجلة «الكاتب» في عددها الثاني بين ما توصي بقراءته . والعجيب ان الكتب كالآدميين في حفظها بين الناس . فقد كنت اخشى ان يهاجم هذا الكتاب مهاجمة عنيفة . وقبل ذلك كنت اخشى قيام زوبعة بشأن كتابه الخاص بي . ولكن وقع عكس ذلك . ولهذا يقترح ادهم نفسه التنبيه الادبي الى كتابه : « ابو شادي الشاعر » ما دام اوان الزوبعة قد فات ... »

ابو شادي

في ١٩٣٧/١٠/٧

« ... بلغت ادهم تحياتك . وهو يشكر لك سؤالك عنه . وقد اعطاني هذا المقال لنشره في مجلة « الحديث » او في اي مجلة اخرى لك صلة ودية بها . وقد فهمت منه ان مركزه في النيابة متين كذلك . وانه على كل حال سيعود الى تركيا قبل زمن طويل ...» .. ابو شادي

في ١٩٣٧/١٠/٢١

« ... ارسلت الى ادهم المقال الاجنبي . واخبرني تلفونيا انه رده اليك مع ترجمته وافادني ان لغة المقال ليست روسية صميمة بل هو بلغة قوقاسية محلية . ومع ذلك فقد ترجمه لك ، وذكر انه مستعد لاي خدمة لك من هذا القبيل ... » .. ابو شادي

الاسكندرية مساء السبت ١٩٣٧/١٠/٢٣

« ... تسلمت هذه اللحظة رسالتك المؤرخة هذا الصباح . وقد حولت الى الدكتور ادهم ما يخصه . ويمكنك ان تكتب اليه بعنوان : ٢ شارع موطش باشا بالاسكندرية . واني اوافقك على انه يمكنه ان يستفيد ماديا من الترجمة ، ولكنه كما خبرته لا يهتم بالمادة بتاتا ، وهو منكب بصفة خاصا على ابحاثه التاريخية الاسلامية لانها ـ كما صرح ـ العمل الاول الرسمي المطالب به . ومع ذلك فهو جم النشاط ، ففي وسعك ان تستدرجه بين وقت واخر الى ترجمات مفيدة وتأخذها منه ، وتجمعها عندك ، ثم تعهد لاحد الناشرين بطبعها بعد التفاهم معه ، وهو لا يطالب ابدا بنقود ، وكل ما يطلبه عدد من النسخ لاهدائها الى اصدقائه المستشرقين خاصة ، وللجامعات والمكتبات العامة . فهو « ايديالست » بكل معنى الكلمة .

(حاشية) : ضرب الي الدكتور ادهم التليفون في هذه اللحظة من المطبعة ، فاعتذرت اليه عن المقابلة بسبب مرض زوجتي . واخبرته باني حولت اليه خطابا وكتابا منك . وهو شاكر لك كثيرا وسيكتب لك . ومن رأيي ان تطالبه بين وقت واخر بمقالات مختلفة سواء بالعربية او بغيرها من اللغات التي يعرفها ، للمجلات التي لك صلة بها ، فتحسن بذلك للفكر الحر . وبغير ذلك لن تجده يهتم بشيء ، لان معظم وقته ذاهب في الدراسة لا في التحرير . ولك اشواقي العاطرة وتحياتي »

المخلص ابو شادي

الاسكندرية في ١٩٣٧/١١/١٠

« ... من الغريب ان الدكتور ادهم زارني اليوم في المعمل ، ولم افهم منه اي تقصير نحوك ، بل بالعكس فهمت منه انه لا يتاخر في الرد عليك ، واغلب ظني ان رده قد فقد ، ولهذا يحسن ان تكتب اليه لاني لا

ادري متى سأراه ثانية ، وخطابك المؤرخ امس لم يصلني الا بعد ظهر اليوم اي بعد ان تركني .

غير صحيح مطلقا ان النيابة اجرت اي تحقيق بشأن رسالته : «لماذا انا ملحد » خلافا لتهويش اصدقاء الاهرام . وانما اقتصر التحقيق على رسالة « الزهاوي الشاعر » و « رسالة محمد » . فما ذكره « الصباح » لا اصل له بتاتا . » ودمت بخير لصديقك المخلص دائما ابو شادي .

١٩٣٨/١/٧

« ... واما عن الدكتور ادهم فاني لم اره منذ زمن بعيد ، واقترح عليك ان ترسل اليه خطابا مسجلا بعنوان منزله حتى تتأكد من وصوله اليه اينما كان ... »

١٩٣٨/٩/١٠

« ... زارني الدكتور ادهم وسألني عنك ، ويظهر انك نزلت في محطة غير التي انتظرك فيها . وهو متطلع الى لقائك قريبا . واستفهم مني تلفونيا مرتين عن موعد وتاريخ حضورك وحضور الاستاذ سامي الكيالي . والى اللقاء في اسعد الاوقات ... »

١٩٣٩/٦/٢٨

« ولم نعثر في رسائل ١٩٣٩ على اشارة لادهم ، ولكن كان هناك خبر عنه ورد في رسالة من الشاعر حسن الصيرفي الى محمد امين حسونه في ١٩٣٩/٦/٢٨ هو : ستلقى للدكتور اسماعيل احمد ادهم محاضرة عني يوم ١٢ يوليه ١٩٣٩ من محطة اذاعة باري الايطالية في الساعة السادسة والدقيقة ٤٥ فهل .. تشير الى ذلك في مجلة الصباح .. »

وبعد وفاة اسماعيل ادهم ببضعة اشهر ارسل ابو شادي الى حسونه الرسالة التالية :

الاسكندرية في ١٩٤٠/١١/٥

« ... واما عن الاسكندرية فقد فاتني التمتع بها باي صورة في هذا الصيف نظرا لاشتداد المرض علي . وهي في المساء ظلام دامس وعبوسة متناهية . ولكنها في النهار باسمة بل ضاحكة . والغارات تتوالى علينا في الليالي القمرية .

« واما عن المرحوم ادهم ، فقد بعثت الى الاستاذ سامي الكيالي بالنبذة التي كنت نشرتها عنه في جريدة « البصير » ، ولكني لا اقوى على المساهمة ببحث جدي عنه . ولدى الاخ الصيرفي آثار قيمة عن ادهم ، وهو خير من يعزز الكيالي اذا استطعت تنشيطه ، وخير وسيلة ان تقابله في منزله بعد الاتفاق معه تلفونيا ـ بالقسم التجاري بوزارة الزراعة بالدقي ... »

* * *

(واما عن رسائل اسماعيل أدهم الى حسونه ، فيتضح من تواريخها انهما لم يتراسلا الا خلال عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، وكان ابو شادي واسطة التعارف بينهما ، كما كان الواسطة بين اصدقائه وزملائه الكثيرين يعطف على الجميع ويساعد ويفتح صدر مجلاته ومطبعته وبيته لهم .. وان كان قد ناله من بعضهم جزاء سنمار !...

ويبدو ان توقف الرسائل بينهما كان بسبب تدهور صحة ادهم وحالته المعنوية منذ نشوب الحرب العالمية عام ١٩٣٩ ، ثم بوفاته في صيف ١٩٤٠ .. وهذه الرسائل كما يرى احاديث عادية بين صديقين ، وان كانت تكشف عن الاهتمامات الادبية للكاتب وآماله في ذلك الحين :

الاسكندرية في يوم الاثنين ٢٥ يناير ١٩٣٧

حضرة الكاتب الفاضل الاستاذ محمد امين حسونه :

« بعد التحية ، جاءني اليوم خطاب من الاستاذ الدكتور ابي شادي يذكر لي فيه رغبتك في موافاتك بنسخة من دراستي لشعره بالانجليزية. وقد كنت على موعد مع الدكتور امس (الاحد) ولكني مع الاسف مريض بالانفلونزا المتفشية الآن في الثغر فلم استطع مقابلته . والرسالة المذكورة ليست بجانبي الآن بل هي في حرز امين بضاحية ابي قير . والدكتور نفسه لا يملك منها غير نسخة واحدة كما اخبرني . وعلى ذلك استمهلك قليلا حتى اتمالك صحتي فاستطيع الخروج من المنزل وتصديرها بنفسي اليك . وهي في الواقع لا تستحق اهتمامك لان ما فيها من المعلومات غير غريب عنك . وانما مكتوبة لفائدة اصدقائي المستشرقين ولفائدة تلاميذي الاجانب . ولعل الطرفة الوحيدة في الرسالة هي ما اودعته فيها بصراحة عن بعض خصوصيات وآراء صديقنا الدكتور مما استنتجته من بعض كتاباته ومن احاديثي معه ، ومما استدرجته اليه وعز على غيري ممن كتبوا عنه . وقد حاول منعي من نشر ذلك فرفضت وان كنت ازاء ذلك وجدت من الحكمة لمصلحته ومصلحتي معا ، وما دامت حرية الرأي والنقد شبه معدومة .. ان احصر توزيعها في الخارج حيث لي قراء كثيرون . وبذلك تغلبت على اعتراضات الدكتور ابي شادي . وقد وعدته بان لا اوزع الرسالة في مصر على الافراد . وفي الواقع لم يبق منها عندي سوى بضع نسخ . وما دام قد سمح لي فاني بكل سرور اوافيك بنسخة منها على شريطة الاحتفاظ بها لنفسك فقط ، وان لا تكتب عنها في جريدة او مجلة مصرية . ولكن لا مانع من الاشارة اليها ، والاقتباس منها في احد تآليفك المقبلة . اذ فهمت من الدكتور انك شارع فعلا في تأليف كتاب ادبي سيحوي دراسة عنه ، واخرى عن الاستاذ محمود تيمور . وقد حدثني عنك حديثا طيبا غير مرة فؤاد معرفتي السارة بك وان لم نتلاق الى الآن.

كذلك ذكر لي الدكتور ابو شادي في خطابه ان الاستاذ الدكتور جرمانوس يريد الاستفهام مني عن بعض مسائل تتعلق بالتاريخ الاسلامي والحديث ، واني ارحب بذلك . وسارسل اليه نسخة من رسالتي السالفة الذكر . وعندما تكتب اليه تفضل بتبليغه تحياتي وتقديري . واذا كان لك اصدقاء ممتازون في الخارج تشير باهداء رسالتي عن شعر الدكتور ابي شادي اليهم ، فارجو افادتي عن اسمائهم وعناوينهم .

هذا وارجو عدم مؤاخذتي على ركاكة لغة الرسالة لاني لا اجيد الانجليزية كما اجيد الالمانية او الروسية او التركية مثلا التي اراسل مجلاتها . وان شاء الله عندما يصدر كتابك الجديد ساغتبط بالتنويه به في الخارج . وتقبل فائق احتراماتي » اسماعيل احمد ادهم

٢٠ اكتوبر ١٩٣٧

« ... اثقل علي حمى الدنج امس . ومع هذا انكببت نحو ساعة على ترجمة القطعة التي ارسلتموها لي عن طريق الدكتور ابو شادي . ولقد اشرتم في كلمتكم للدكتور ابو شادي انها باللغة الروسية . ولكن ظهر لي انها لغة محلية ـ قوقازية ـ واني طي هذا باعث لكم بترجمة دقيقة لها املا ان تتمكنوا من درجها في احدى المجلات الادبية في مصر . ويسرني بصفة خاصة ان اقوم لكم بترجمة ما ترغبونه وخصوصا ما اتصل منها بمجرى الادب المصري الحديث .

هذا الى انه لو امكنكم ان تمهدوا السبيل لي مع المستعرب سعيد نظامي كاتب المقال لنشر بعض المقالات التي اتناول فيها الادب العربي الحديث لكان في ذلك خدمة لي وللادب العربي بوجه خاص .

اما المقال الذي بعث به الدكتور ابو شادي ووعدتموه على ان تعملوا على درجه بعدد الرسالة الممتاز ، فاني الاحظ انه موجود في ادارة الرسالة مقال لي عنوانه (التاريخ) ارسلته منذ اسابيع ولم يدرج بعد. ويظهر انه سهى على الاستاذ الزيات . ويسرني لو حدثتموه في هذا الشأن . وختاما تفضلوا بقبول تحيات » أ. أ. ادهم

الاثنين ٢٥ اكتوبر ١٩٣٧

« ... وبعد وصلتني هديتك القيمة « وراء البحار » وقد وجدت فيها متعة نفس ساعة من عصيرة امس ، وقريبا ساعمل على موافاتك بكلمة تناسب المقام تعمل على نشرها بمعرفتك . هذا الى انه لو امكن ان تبعثوا لي بنسخة من مجموعة قصصكم « الورد الابيض » اكون ممنونا ،

فاني افكر بعد ما طالعت كلمة الاستاذ سعيد بك نظامي ان اكتب فصلا تحليليا عن ادبكم في كتابي الذي اضعه بالانجليزية عن : « مجرى الرومانتيسم في الادب العربي الحديث » .

وبخصوص ترجمة مقال : «كلمة عن الادب المصري المعاصر» الذي بعثت بها اليكم فاني آمل الا تنسوني بعدد من المجلة التي تنشرونها به . وقد كان الاستاذ صالح جودت طلب مني نسخة من كتاب الدكتور ابو شادي: « عقيدة الالوهة » ليكتب كلمة في الصباح فارجو اذا كنتم تقابلوه ان تحدثوه بشأن ارسالها لي ان كان قد انتهى من درسها . وتفضلوا بقبول اخلص تحياتي » أ. أ. ادهم

١٩٣٧/١٢/٥

« ... تحية واحتراما ، وبعد ارسلت اليك خطابي ومع هذا لم يصلني منك اي افادة عن وصولها ، ومما زاد دهشتي واستغرابي ان يحدثني صديقي الدكتور ابو شادي انك شكيت اليه تقصيري في الرد عليك . لقد بعثت اليك بخطابين ، قلت فيهما انه يسرني ان ترسل لي كتاب « الورد الابيض » وما لك من المؤلفات عدا « وراء البحار » الذي سبق لك ان ارسلته لي لاكتب دراسة كاملة عن مؤلفاتك وادبك في احدى المجلات الاستشراقية ، وتلخيص لها بمجلة « الحديث » الحلبية . واني آمل الا يكون حظ خطابي هذا كحظ خطابيّ السابقين . ويسرني بصفة خاصة لو عملت على ان تنشر الترجمة التي قمت بها عن الاستاذ سعيد نظامي في احدى المجلات وقريبا سارسل لك مقالا لكي تعمل على درجة بمجلة المهرجان » المخلص أ. أ. ادهم .

٦ يناير ١٩٣٨

« ... وبعد ارجو ان يبلغ عند الزميل المحترم مرضي وانشغالي موقع القبول في تأخيري في الكتابة اليه . وبعد لقد افردت في دراستي الانجليزية : « مجرى الرومانتيسم في الادب العربي المعاصر » فصلا عنك وعن جهودك في ميدان القصة والتراجم وكتب الرحلات . وهذا هو السبب في صرفي النظر عن ان اكتب كلمة عن كتابك «وراء البحار» لاني في الواقع في المسائل الادبية اعتبر نفسي في حكم المستشرق او المستعرب ، فلا احب ان ادخل باب النقد والتقريظ ، وعلى ما تذكر ان كل ما كتبته من نقد بالعربية يتصل بالمسائل التاريخية كحياة محمد ، وحياة سعد زغلول ، وبعض التعليقات على الدائرة . وانت تعرف ان خطتي هي احسن ما يمكن ان افعله حتى احفظ لدراستي الانجليزية قيمتها العلمية .

اما مطالعاتك عن الانقلاب التركي في « وراء البحار » فاني اخالفك الرأي . وسوف اكتب لمجلة « الحديث » بما يعن لي في هذا الشأن . وارجو ان يكون وجهة نظري مقبولا لديكم في هذا الشأن .

وفي العدد الممتاز من الحديث بحث لي عن اسماعيل مظهر ، وتكملة ستستغرق عددي فبراير ومارس ١٩٣٨ . والاستاذ الكيالي طلب مني ان ارسل له بحثي عن طه حسين وهو يستغرق ثلاثة اعداد ايضا . لهذا اميل ان يكون بحثي ومطالعاتي عن كتابك « وراء البحار » فيما يختص بالانقلاب التركي في غير مجلة الحديث . فأي مجلة تشير علي بارسالها لها ؟

واني شاكر لكم التنويه بمباحثي وكتبي على صفحات الصفحة الادبية في « الصباح » طوالات العام الفائت . وارجو ان اتمكن من رد بعض الدين لكم قريبا بما اكتبه عن ادبكم في المجلات الاوروبية .

بحثي عن « مجرى الرومانتيسم في الادب العربي المعاصر » تترجمه اولا فاولا عن الانجليزية « الانسة بيران احسان » كريمة الدكتور احمد بك احسان . ويسرني بصفة خاصة لو امكنني نشر هذه الترجمة . ونظرا لانها مستفيضة فاظن ان مجلة الصباح لو افسحت في كل عدد ثلاث صفحات ، لكان ذلك من دواعي سروري لانها تنقل للعربية مطالعاتي في الرومانتيسم العربي بقلم صديقتي الانسة الاديبة بيران احسان .

ارسلت لك نسخة من كتاب « ملتقى اللغتين العبرية والعربية ج ٢ تاليف مراد فرح . وهو مصدر بمقدمة انجليزية في نحو ١٥ صفحة من قلمي فلعلها تكون وصلتك . وختاما ارجو قبول تحيتي ودمت للمخلص » أ. أ. ادهم .

الاسكندرية في ٣٠ مارس ١٩٣٨

« ... وبعد ، تلقيت خطابك بمزيد الشكر . وارجو ان ترسل لي اصل الكلمة التي ترجمتها عن الاستاذ سعيد بك نظامي ، وهي قصاصة بالروسية لاتولى ترجمتها من جديد . لاني لم احتفظ بصورة منها فضلا عن اني ترجمتها وارسلت الترجمة لك دون ان اسود واعمل على تبييضها . وسوف اعمل على ردها بعد ذلك ، وهي لا تستغرق مني غير نصف ساعة من زمان على الاكثر .

اما الكلمة التي كتبتها عنكم فهي ترجمة لما بعثت به باللغة الروسية لمجلة استشراقية بالروسيا ، ولم احتفظ بصورة منها ، لاني عادة حينما اكتب لا الجأ الى التسويد والى الاحتفاظ بصورة مما اكتب لكثرة مشاغلي ومباحثي واقتصادا للوقت ... غير ان في الامكان ان اكتب كلمة اخرى عن مؤلفاتكم اذا احببتم واني سابعث على كل حال خلال هذه الايام بكلمة مفصلة يمكن أن تدرجوها بالسياسة الاسبوعية عنكم وعن آثاركم .

بقي لي رجاء عندكم وهو مخاطبة الاستاذ محمود تيمور في ان يرسل لي مجموعة آثاره واثار شقيقه المرحوم محمد تيمور مع صورة له ولشقيقه مع ذكر لاهم المراجع التي عرضت لهما في غير الهلال والمقتطف والشرق والحديث . مع ذكر كلمة عن تاريخ حياتهما وارجو ان تصلني هذه الآثار قبل منتصف مايو القادم نظرا لاني بعد هذا التاريخ ساكون في غير الاسكندرية .

اني منشغل الان في وضع كتاب بالانجليزية عن الديموقراطية في مصر ، واخر عن عبد الحق حامد بك شاعر تركيا بالعربية بمناسبة الذكرى السنوية الاولى ، وهو سيصدر خلال الشهر القادم . كما اني ساخرج خلال هذه الايام بحثا صغيرا عن علم الانساب العربية ، واخر في مائتي صفحة عن الرسول محمد ، اهله ونسبه ـ نظرا لاني في ختام هذا الصيف ساغادر مصر الى تركيا للجامعة . ودمت للمخلص »

اسماعيل احمد ادهم

(بدون تاريخ)

« ... ابعث لكم طيه بكلمة عن ادبكم ، لكم ان تنشروها او تطووها حسب رغبتكم . وكان بودي ان اتمكن من كتابتها من قبل ولكن الاشغال ومسائل الحياة كانت تبعدني عن النظر نظرة جدية في كتابيك : «الورد الابيض » و « وراء البحار » .

ارجو لو امكنك ان تشير الى اني منشغل بوضع كتابين عن الادب العربي ، الاول بالالمانية وعنوانه : « المفكرون المصريون » ، وان سيصدر قريبا الجزء الاول منه . والثاني بالانجليزية عن « مجرى الرومانتيسم في الادب العربي الحديث » . وتطلب من حضرات الادباء والكتاب مساعدتي في ان يرسلوا لي مجموعة آثارهم وصورهم الفوتوغرافية مع نبذة عن حياتهم او المراجع التي عرضت لها وذلك في الصفحة الادبية من « الصباح » . هذا الى اني لاحظت ان « المهرجان » قد اغفلت نشر بعض اجزاء مما قمت بترجمته عن الاستاذ سعيد نظامي . لهذا اكون ممتنا لو عملت على نشره في غير المهرجان . ودمت للمخلص »

أ. أ. ادهم

الاسكندرية — نقولا يوسف

.. الجامع مظلم . والرطوبة عميقة . واعمدة الرخام كثيرة ضخمة . والحصيرة صلبة تؤلم ظهري . السقف يندمج في الاعمدة . والاعمدة في الارض . الارض خفيفة . الصمت هاوية . الطرق اللطيف . شمس النهار سطعت بقوة . وفي المساء لم تكن هناك سحابة . ونسيت صوت النفير . نفير السيارة الكبيرة . وراحت . وراح . وجاءت وجاء . وظلام . ظلام . ظلام . وخيط ضوء احمر رفيع . يتسع ويشمل كل شيء . وطريق مترب . تحفه من اليمين ترعة . ماؤها رمادي . وعلى الضفتين اعشاب جافة وتندفع من حين الى آخر . طيور بيضاء رشيقة . تدور في الهواء . وتحملق ثم تهوى فوق صفحة الماء . وتصرخ الطيور صراخا متصلا متحشرجا . تختفي . ويعود الصمت العميق ..

.. في الناحية اليسرى من الطريق . تنبثق مداخن طويلة من الارض . واسفل المداخن تستقر ابنية المصانع المحدبة السقوف . من بعيد . امشي متأبطا مظروفا اخضر التفت الى المداخن . ابطىء من سيري . واتقدم ناحية المصانع والارض كلها شوك . وخطواتي بطيئة والناس . والطريق . والاوراق . والمستقبل . والظلام . والدخان . وباب المصنع الصلب . فلأقف امامه . لا احد هنا . فلادخل الى الداخل . اين البواب ؟؟ ورش ؟؟ كل شيء هادىء . حتى الماكينات . ضجة . ضجة تنبعث فجأة . هذا الرجل الواقف هناك . بدين . من حزامه تتدلى سلسلة ذهبية . وخلفه مبنى ابيض انيق . اهو مدير المصنع ؟؟ وربما كان صاحبه .

صباح الخير ..

نـ .. نـ .. نـ .. نعم .. ماذا تريد ؟؟

وامد يدي بالمظروف ..

العام الماضي حصلت على ... والم ...

ما له هكذا ؟ ينظر الي . وقامته ترتفع كمدخنة . ليس هذا رجل . انه مدخنة ولا احد ينقذني . اني اخاف . راسه غاصت بين السحاب . صدى . صدى ... اعرف جيدا .. معي شهادة .. لا .. توجد .. لا .. وظائف .. لا لا لا لا .... وظائف .. وانبثق الدخان من جسم الرجل . غزيرا . كثيفا . واندفعت سحابات الدخان الاسود اللزج من المداخن كلها وتزايد عددها . واصبحت كقضبان . والصدى يتردد . وارتجف . ويتضاءل حجمي . واتراجع بسرعة . وادب ناحية الطريق . الطويل المترب . نبت الشوك . وتكون مكانه سور

الظـلام

بقلم جمال الغيطاني

سميك . حجب عني الترعة ولم اعد اراها وترددت اصداء مخيفة هنا وهناك . وتعثر الهواء في طريقه الى صدري . ونبح كلب لم اره . يحتضر والسماء تضيء بلا شمس . والمداخن طويلة فارعة . واين الترعة ؟؟ والقطار والمحطة والبلدة . والطريق والمحراث والمحراث . والخيط الاحمر ... و .. و .. و .. ظلام . ظلام . ظلام ..

.. ياه ..

رأسي تدور . وغشاوة امام عيني . واعمدة الجامع ضخمة كما هي . كانت هكذا اول الليل الصمت مخيف وانت هنا وحيد . ورأسي لا زال

قصة

يدور . اتخاف ؟؟ انا في جامع . والشياطين لا توجد هنا . الوحدة المرة . غريب في القاهرة . ولا قريب ولا اقارب وموجات ارهاق في ظهري . والنوم هنا مؤلم . قسوة . وقسوة . والم . ودخان . والقرية واضحة بيوتها القليلة الطينية جدرانها سوداء ودخان يتصاعد من فرن . وكلاب فوق اسطح البيوت . وجواد يصهل . واجري الى منزلي . الفرحة في عيني . ورقة صغيرة في يدي .

.. اين ابي .. أين ابي ؟؟

ومن حجرة خرجت امرأة . وقفت في الفناء . ونظرت الي . بعينين في لون الليمون . وخرج صوتها باردا . نائم .

نجحت . نجحت . اخذت الشهادة . حملقت في وجهها . منتظرا ضحكة ناعمة . عبارة جميلة . تهنئة ولكن الصوت ازداد برودة . ادخل . فهو يرقد بالداخل ..

وفي الداخل . يتقلب ابي فوق حشية . ويخرج من فمه صوت كسول .

من ؟؟ فريد ؟؟ ماذا تريد ؟؟

نجحت يا ابي ..

قال ابي .

طبعا .. كان يجب ان تنجح ..

وارتفع صوتها من الخلف ..

اصبحت رجلا . اذهب الى المدينة لتبحث عن عمل . لن اطعم بغلا .. انت رجل معك شهادة ..

شهادة ؟؟ نعم . ولكن . سأرحل بلا شك . اريد كلمة حلوة . اسمعها من اي واحد حتى الفرحة لم تبرق في عيني ابي . كان يجب ان تنجح . آه لو كانت امي هنا . في الدنيا ..

ـ قلت ..

نعم .. نعم .. سأذهب الى المدينة ..

ـ صاح ابي ..

ـ جهزت اوراقك ؟؟

اجبت ..

نعم ..

قالت : سترحل الليلة .

وتسألين من انا ؟

وتسألين من أنا ؟ ما كنت مجهول السنا
اني فتى من يعرب ومن (قريش) معدنا
قصيدة من وله وملحمات للفنا
وانت يا شقراء يا زنبقة تجلو المنى
حورية لونها قلبي فيما لونا
وموسم أين الربيـ ـع من جنى موسمنا
يجذبني الشوق اليك والحنين موهنا
فانكر النوم باجـ ـفاني واقتات الضنى
واستعيد الذكريا ت وهي خير مقتنى
قبلي جدي عشق الـ بيض وفدى الاعينا
ولي أب تيمه الـ جمال من شآمنا
تسحره زرق العيو ن كم لهن ارتهنا
وثم جد شاعر يرتصد الحج هنا
له بـ « جمع » ذكريا ت وغرام بـ « منى »
رنحة الحب فلم يخش الجوى والفتنا
وثم في « اندلس » كم ازدهت بنا الدنا
بطحاؤنا اللؤلؤ والـ حسان من يخدمنا
نجذبهن كالفرا شات ونطوي الزمنا
والكون نهر عربدات كم تغنى حولنا
حتى طوانا الزمن الاصم طيا وانثنى
فيا له من عابث يا شد ما أرمضنا ؟
أبعد هذا السؤدد الـ لماح يا فتنتنا
تستنكرين قيمتي وتسألين من انا ؟

الرياض — حسن عبد الله القرشي

اكد والدي : نعم الليلة ..
اجبت : نعم .. الليلة .. الليلة
.. لكن اريد نقودا ..
ـ اعطيه جنيهين ..
ـ لن تكفي .. اريد اكثر .. خمسة جنيهات من نقود امي ..
ـ امك ليس لها نقود ..
ـ امك ليس لها نقود ..

نظرت الى الاساور الذهبية المحيطة بيديها . استدرت ناحيتها . في بطء تصلبت قامتي اشرت اليها .

ـ : نقود امي .. نقود امي ..

وفتح ابي فمه . ولم يتكلم . تصلب مكانه . وامتدت يدي الى عنقها . واحاطته باصابع من حديد. وحاول ابي ان يقفز من مكانه لينقذها ولكنه ثبت الى الارض . وتقلص راسها بين يدي . اصبح في حجم برتقالة . ثم في حجم ليمونة . وتلاشى . لم يبق في مكانه غير فجوة عميقة تغوص في الجسد الساكن . وعاد الاب يصرخ . واستدارت ناحية الباب . نظرت اليه باسى . احنيت راسي. وتناولت المظروف .وخرجت من الباب ..

.. شوارع القرية يكسوها ضوء غريب . هناك شخص يتبعني . التفت خلفي انها عجوز . تتعثر في خطاها . توقفت . توقفت هي . اشرت لها بالاقتراب . ولم تقترب . بدت وكأنها تود لو تصيح . لا تستطيع . فمها مقيد . اسنانها لا تنفرج . ياه .. انني افهم ما تود ان تقوله . تلك العجوز الحبيبة . وداعا وداعا .. ابتعدت عن القرية . ومشيت في الطريق الزراعي الموحش الضفادع تنقنق . صوت ماكينة الطحين . تك . توك . توك . توك . عميق اسود . وتصاعد الدخان من القاطرة . وفي لحظات مضى القطار الكبير . تحرك . ومرة اخرى رايت المراة العجوز خارج النافذة . تجري بجوار القطار . وتكبو . وتنهض . وتنهض وتكبو . وداعا . وداعا ولدي الحبيب . واضواها الدخان الاسود المندفع من جوف القاطرة . واختفت ولف الدخان كل شيء . الدخان الكثيف القاتم . ومضى القطار والظلام .. الظلام .. الظلام ..

القاهرة — جمال احمد الغيطاني

مكتبة الاديب

الضباب

رواية ـ تأليف ثروت اباظة ـ ؟ صفحة ـ مطبعة (؟)

« لم ينم محمد ليلته وانما راح يتقلب في فراشـــه حتى آذن الفجر بشروقه وقام الى البهو وجلس به وحيدا فلم تطل وحدته فقد قام ابوه الى صلاة الفجر ... وانتظر محمد حتى ختم ابوه الصلاة فقال له .

ـ ابا ... اريد احمد معي .

ـ انت تسهر في الخارج واحمد سيكون وحده ولن تراقبه .

ـ اريد احمد معي يا أبا ولن اسهر ... سأعيش له يا أبا .

ـ ما شئت يا بني ... ما شئت .

وصحب الحاج ابنه وحفيده الى القطار فركباه ... وحين عاد وحيدا الى طريق القرية لم يتصاعد الضباب امام عينيه ... احس كأن الضباب قد ركب القطار مع ولده وحفيده .

لقد آن لمحمد ان يحمل العبء الذي حملت ... وتدور الحياة » .

يأتي هذا الجزء الاخير من رواية الضباب لثروت اباظة ليكشف رؤية الكاتب للقضية الانسانية التي يبدو انها كانت تشغل الفنان على طول الخطوط المتشابكة المتوازية التي غزلها في دقة روائية متانية .

هذه القضية الابدية القديمة قدم الانسان والباقية طالما كان هنـاك انسان يتزوج ويمنح للحياة خصبا جديدا .

لذلك فمن اجل تقييم هذا العمل الجديد للروائي ثروت اباظه يجب ان نطرح عدة اسئلة نحاول على قدر الامكان ومن خلال اجابتها ان نلقي الاضواء على القضية الانسانية الرئيسية وما يخدمها من قضايا ثانوية وكل ذلك في اطار البناء الفني للعمل نفسه القائم على خصائص معينة سوف نحاول ابرازها ، وكلها تساهم في تصوير الحدث ومتابعة نموه في صبر رصين وتصوير الشخصيات وتفاعلها مع الاحداث لتكون في النهاية رؤية جمالية لمصير مجموعة من الناس في اطار مرحلة تاريخية معينة في حياة المجتمع المصري .

فما هو الخيط الرئيسي في الرواية ؟

منذ الفصل الاول ومن خلال الريف المصري المستسلم لحياة زراعية وديعة رتيبة وأنسام الخمول يعبق بها الجو ، من خلال الريف المصري المعزول عن المدينة تحت قبضة جنود الاحتلال الانجليزي في الفترة التي تسبق اندلاع ثورة ١٩١٩ ، وسط هذا السكون المتجهم نلتقي بالحاجـة المسكينة بمبه زوجة الحاج والي عبد الهادي من اعيان قرية الحمدية ، الرجل الذي يمتلك في زمام القرية ثلاثين فدانا ويمتلـك في حياتـه مأساة تنغص عليه سعادته المطمئنة ، وهو رجل ريفي لذته الكبرى أن يمارس الخلود والامتداد الانساني في ابسط اشكاله ... اما الحاجة بمبه فامرأة ريفية لا تستسيغ ان تعرض نفسها على طبيب فالتقاليـد قد تمكنت منها ، وهنا في هذا الموقف الروائي يخيم الضباب فلا نعرف هل هي امرأة عقيم ام مريضة قابلة للعلاج ، وهي ايضا لا تستطيع ان تتجاهل رغبة زوجها في الانجاب هذا رغم حبه وتقديره لها ، والسيدة بمبـه امرأة بعيدة النظر ومن امهر نساء القرية في رؤية المستقبل في الفنجان ، فهي تواجه هذه المأساة بوعي الريفية وتقدم على خطبة صالحـة ابنـة سيدة ام العسل لزوجها الحاج والي ، فصالحة قد سبق لها الزواج ولها طفل هو حسين ... وهذا في اعتقادها يحل اللغز ويضمن سيطرتها على حياة زوجها ، وبين الرغبة الملحة والخجل يقبـل الحاج والي الامر .

وهنا نضع يدنا على اول عقدة في الخيط ... فعلى المستوى الانساني نرثي لتضحية الست بمبه بعواطفها ... ومقدار الاحساس المؤلم المعذب الذي يشعر به الحاج والي وكل هذا من اجل الانجاب ... ويتساءل القارىء وسط هذا الضباب الذي يحيط الموقف ... هل السيدة بمبه ضحية تقاليد تمنع المرأة في هذه الفترة وفي هذه البيئة الريفية تمنعها من عرض نفسها على الطب ، على العلم ، ام انه الهدف البعيد المجهد الذي يستهدفه الحاج والي في انجاب اطفال ولو على جثة عواطف واحاسيس زوجتـه .

اننا نرى في نفس الوقت خطا موازيا يسير بجانب هذه المأساة ولـو انه يسير في منحنى آخر فوجيه الناحيـة زيـن العابدين بك الدرملي يواجه نفس المأساة فزوجته لا تلد ... غير انه لا يجد غضاضة فـي عرضها على الطب ويلتقي الخيطان في موقف مفرح محزن موقف تجتمع فيه المأساة مع البهجة .

فلقد وضعت صالحة للحاج والي مولودا ذكرا ولكنها فقدت حياتها ثمنا لحلم الحاج والي وفي نفس الوقت وضعت بهية زوجة زين العابدين بك مولودا انثى .

وهنا يعود الضباب ليخيم مرة اخرى ، فعلى جثة صالحة ، ولد حلم الحاج والي ، ومع عودة الضباب يثار السؤال في ذهن الحاج والي ... هل كل هذا من اجل الانجاب .

ولنتابع بعد ذلك الخيطين المتوازيين ، ولنصحب الحاج والي فـي حياته الهادئة مع زوجته السيدة بمبه وابن صالحة حسين الذي تبناه بناء على رغبة السيدة بمبه وابنه من صالحة محمد ، ولنضع اعيننا على حياة زين العابدين الدرملي في نفس الوقت فسوف ندرك كلما تابعنا الفصول ان حياة الاسرتين تسيران جنبا الى جنب بل ربما يحدث ان يدمجا معا في حياة مشتركة .

وزين العابدين بك الدرملي رجل يعشق الحياة ويسرف في اللـذة وينفق جزءا كبيرا من وقته في مغامرات مع نساء الليل في القاهرة ولا يتورع عن المقامرة بكل شيء في سبيل نزواته وهنا نجد ان هذا الموقف العابث من الحياة سوف يشكل مصير ابنته الوحيدة آمال وسوف يؤدي به الى فقد جزء كبير من الفدادين التي يمتلكها في حين ان الحاج والي ينصرف بكل اهتمام الى تربية ابن صالحة حسين وابنه محمد في ظل رعاية السيدة بمبه .

وهنا نتساءل هل تحققت آمال كل من الحاج والي وزين العابدين في انجالهما ، ثمة اسئلة وعلامات استفهام قد طرحها المؤلف في الفصول الاولى وعلينا ان نتامل جيدا لانها ستشير الى ما نعنيه بمشكلة الحياة والامتـــداد .

الحاج والي : ... ايستحق الاطفال كل هذا ... ايستحق الاطفال ان تطعن امرأة صالحة كزوجتي كرامتها كامرأة وتتجاهل انوثتها الـى درجة ان تخطب لزوجها امرأة لتنجب له اطفالا . ماذا اصنع بهم ؟ لماذا كنت شديد الرغبة في الانجاب الى درجة جعلتها تقتل انوثتها بيديهـا وكأنها تنتحر ماذا سأصنع بهم ... وماذا سيجري في الدنيا اذا لـم انجب انا اطفالا ؟ هل ستتوقف الدنيا عن الدوران ماذا اصنع بهم ، اي شعور عجيب يشعر به الاب فيجعلني حريصا كل هذا الحرص على ان انجـب .

لم يتساءل مرة اخرى : أهو حرصنا على ان يظل اسمنا من بعدنا .

زين العابدين : ... وماذا بهم من بعدنا ان بقي اسمنا او لم يبق .

الحاج والي : ... فماذا اذن ... اي شيء عجيب في هذه المخلوقات الصغيرة الجبارة ويجعلنا نحبها ونحرص عليها ونتوق الى ان نصبح اباء لهـــا .

زين العابدين : ... لعلنا نحب فيهم الحياة يا حاج والي ، فهم حياة جديدة واقبال الاطفال يشعرنا او هو يشعر الاباء ان الحياة ما زالت تستطيع ان تجدد نفسها .

ان ما تعنيه هذه المناقشة في اعتبارنا هو التلميح لرأي ما تحمله الرواية لمعنى الحياة وما يؤكد ذلك اننا عندما نتتبع مصير الابناء سوف نجد الاجابة او محاولة بناء رؤية جمالية لمشكلة الحياة موجودة في ثنايا الاحداث التي صنعت حياة كل من حسين ومحمد وامال .

ولقد استطاع الكاتب ان يكشف الشكل الجمـــالي المرتبط عضويـــا بالموضوع ... فهذه الرواية من روايات الشخصيات ومن هنا كان هذا التوزيع المتناسق بين الشخصيات ودراستها وتتبع مصير كل شخصية في صبر . ولقد تفاوت الاتفاق البنائي للشخصيات الثلاث وربما جاءت شخصية حسين في مقدمة الشخصيات التي رسمت بمهارة واعطاهـــا الفنان من نفسه الكثير .

حسين هذا اليتيم الذي تدمع عينه اليسرى ولا يدري لانسيابهـــا سببا ، من طفولته وهو يشعر بالغربة في بيت الحاج والي هذا رغـم الحنان والاهتمام الذي اولاه له كل من الحاج والست بمبه ، غير انـه ايضا في طفولته اثر الا يشغل احدا بنفسه ابدا غير انه طفل ذكي حفظ القرآن في خشوع وتعلقت اماله ان يفهم معناه ، وبوعيه هذا المبكر بدأ يشعر بافضال الحاج والي عليه ، ولا يخفى على القارىء انه ربما بدأ يضيق بهذا الفضل مما جعله يقرر ويلح في القرار على السفر الى الازهر لاتمام تعليمه الديني وليصبح واعظا كبيرا في القريـة ويتزوج من هنيـة .

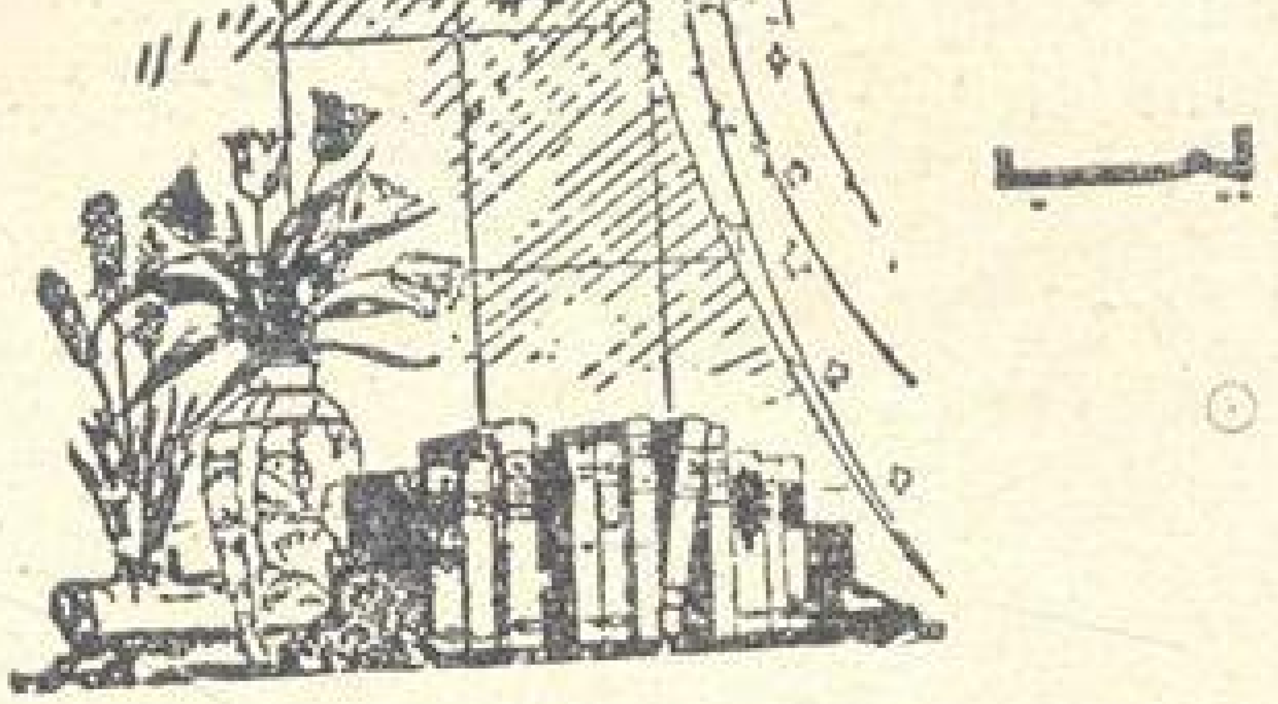
انه يقول : ما دمت ساعيش فانا الذي ساصنع مستقبلي بيدي ولن يصنعه لي احد غير ان الروائي يضع هذه الشخصية القلقة الطموحة في سلسلة احداث تؤدي الى مصير منطقي لها .

ففي القرية وعلى اثر حادث يسمع من يقول له (الم يبق الا انت يا من تعيش عالة حتى تتعدى على طفل صغير) . وسوف تترك هـــذه الحادثة في وجدانه الحساس اثرا لا يزول ربما يجعله يكره القريـــة والعودة اليها وربما تجعله يحقد في باطنه على الحاج والي ، ولقد تيسر لحسين المجيء الى القاهرة والازهر فهل احسنت استقباله ؟! ان نمـو الاحداث يؤدي به الى مواقف متشابكة تحدد كما قلنا مصيره .

انه يستدعى في احد شوارع القاهرة ليقول فتوى في الدين فيفاجأ بركلة عنيفة في ظهره ترفعه الى اعلى قليلا ثم تهوي به على الارض منكفيا على وجهه عمامته نافرة عن رأسه وصوت يطن في اذنه .

(الم يبق الا العيال نسألهم في كلام الله يا بن الكلب يا صايع .. قم قم خيبة الله عليك وعلى ابيك) .. والقاهرة مدينة عابثة وفـــي بيوتها ربما يوجد العبث المزهل لصبي ريفي مثالي وهذا ما حدث فصاحبة البيت الذي يسكنه تفلح في اصطياد الشاب لمصيدة الجنس وتدمـره نهائيا وهو الشاعر الرقيق المثالي ولا سيما بعد ان بلغه زواج هنية من اخيه محمد ، ان ثمة تحول بدأ ينتاب حسين فلقد سلم نفسه للعبث وهجر الازهر الى دار العلوم ولم يعد يهتم بالحاج والي والست بمبة وحتى موهبة الشعر نالها الزيف ... فهو يصرخ في نهاية الرواية (اتلك هي الحياة التي كنت اصبو اليها ، اهذا هو الفن الذي عشت عمـري احب ان اكون واحدا من اهله ـ اعيش في رحابه واقضي عمري في ظل منه ... ماذا اصبحت ، كيف جنحت من الحياة هذا الجانب المظلـم فيها من انا ؟ خباز يجهز ما يطلب منه) .

وسوف نؤجل مناقشتنا لازمته التي سوف نجد انها ازمة واقع عام



الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد أدنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد أدنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : (الادارة ٢٢٣٨١٩ (Dir : 223819
(المنزل ٢٢٥١٣٩ (Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

أنعكس عليه وكذلك سوف نؤجل انعكاس مسار حياته على الحاج والي بعد ان نشير الى محمد وامال .

ومحمد ابن الحاج والي نستطيع ان نتعرف على شخصيته من كلمات في الرواية هي احسن تعريف به نعم ها هو قد اصبح طبيبا ولكنه يفاجأ في لحظة انه مصنوع ولم يصنع نفسه .

لعله كان يختار الطب لو ترك له ان يختار ولكنه هو لم يختر فهو يحس انه مسوق في طريق لا يملك فيه لنفسه مصير ، اما كان يكفي اباه ان ينجبه ويختار له الزوجة ويختار له البيت الذي يعيش فيه ، نعم انه طلق زوجته ولكنه مع ذلك يحس ان الخيوط التي تربط حياته خيوط غريبة عليه ليس بينه وبينها آصرة من تعرف ، هي غريبة عن نفسه لا جذور لها في انحاء كيانه ، خيوط تمتد اليه من خارجه لا هي نبتت من داخله ولا نمت معه ، لذلك نتساءل هل اهتمام وحب الحاج والي الطاغي بمحمد هو الذي صنع مصيره ام هي الحياة العاتية ومشكلتها ... ان محمد سوف يفجع في آمال عندما يلتقي بها في احدى الحفلات بين احضان رجل اخر .

ولا شك اننا مضطرون هنا لدراسة شخصية آمال ومسار حياتها الموازي لمسار حياة كل من حسين ومحمد فهي ايضا نالت من الاهتمام الطاغي من ابيها وامها القدر الكبير ، ولا شك ان بيئتها كانت على شيء من الحرية والاخلاقية مما دفع بالفتاة الى المغامرة وهي طالبة مع الشباب ثم ادى بها الامر وضعف شخصية محمد الذي اندفع الى القمار بكل اهتمام الى ان تخون زوجها .

من هذه الخيوط الثلاثة تتجسد امامنا قضية المصير الانساني لهذه الشخصيات ويجعلنا هذا نعود الى الاباء لنجيب على الاسئلة التي اوردناها في بداية الدراسة . ان الاجابة تهوم في الضباب هذا الضباب الذي نجح الكاتب في استخدامه استخداما رمزيا .

فعندما يأتي الحاج والي لزيارة حسين ويجد في حجرته امرأة يرتفع الضباب امام عينيه ، وعندما يصطدم الحاج والي بخيانة زوجة ابنه محمد ويعلم انه اسلم نفسه للقمار والعبث يعود الضباب .

غير اننا نلمح ضبابا عاما في المرحلة التاريخية كلها التي سردت فيها احداث الرواية ، فرغم الاشارات الغير مباشرة التي تجعلنا نعلم انها فترة ما قبل الثورة ، ثورة ١٩١٩ وما فيها من قلقلة في الاخلاق والعادات المصرية ، وشبح الحرب العالمية الثانية ندرك ان واقع مصر كان يغلي في هذه الفترة ، ولقد حاول الكاتب ان يربط بين حياة هذه الشخصيات وحياة المجتمع المصري في بساطة رقيقة رغم انها كانت مباشرة في بعض الاحيان عندما يصرخ حسين عندما حدد مستقبله : « الا يقولون ان الثورة قد نشبت في مصر من اجل الحرية ، ما الحرية ان لم تكن حريتي في اختيار طريق حياتي ، وطريق حياتي هو الازهر » .

غير اننا نتساءل هل مصير هذه الشخصيات الذي ندينه بلا شك اخلاقيا يشكل في جوهر الرواية ما نعنيه بمشكلة الحياة العاتية ، ام ان عزلة هذه الشخصيات لحد ما عن حركة الواقع المتطور النامي هي سبب سقوطها بعض الشيء ...

اننا نعود ونلمح من سياق الاحداث ان الكاتب كان يهتم بتصوير حياة الابناء وانعكاسها على الاباء وبالذات اباء كانوا يريدون ان ينجبوا للحياة اطفالا جددا ... غير اننا ومن خلال حياة الحاج والي ولا سيما في هذه المواقف المحددة عندما يستمع لاسم حسين في الراديو وقد اصبح شاعرا يشعر بلذة ونشوة وتحقيق لوجوده ، وكذلك عندما يأتي اليه محمد ويطلب منه ان يأخذ ابنه ليرعاه . في هذه اللحظة الشاعرية الانسانية ينجاب لاول مرة الضباب امام عيني الحاج والي وامام اعيننا ونشعر بقوة الحياة وروعتها رغم كل الاخطاء التي هي من طبيعتها .

القاهرة — **عبد الرحمن ابو عوف**

ميراث العار

رواية ــ تأليف محفوظ عبد العال غانم ــ ١٠٨ صفحة ــ مطابع دار الهلال بالقاهرة

كان الادب الملتزم وما يزال يحتل المكان المرموق في تاريخ الادب قديمه وحديثه ، وسوف يبقى كذلك في كل مكان وزمان ، لانه الادب النابع من اقرب المصادر التي يستمد منها الادب مواده الاولية واعرقها اصالة .

واذا كان متذوقو الادب قد انقسموا فيما بينهم الى شيع وطوائف حول تقدير الادب الملتزم والجحود بمكانته ، فلا شك في ان ذلك عائد بالدرجة الاولى الى اختلافهم في تقييم الادب . واذا سئلت الى اي الطرفين انضم ؟ اثرت بلا تردد الى طرف مؤيدي هذا اللون من الادب . وكفى به فخرا انه ادب الشعب الذي يخدم قضايا الشعب ، ويعبر عن آمال وآلام الشعب ، ويقدم الدليل الساطع على قدرة الادب على خدمة الشعب والمجتمع معا ، واثبات ديموقراطية الادب .

والرواية التي بين يدينا والتي تحمل عنوان « ميراث العار » للروائي المصري الاستاذ محفوظ عبد العال غانم ، تمثل هذا اللون من الادب الشعبي الملتزم النابع من ظلال الريف الذي يتسم بكثير من العفوية والسذاجة .

وبالرغم من ان الرواية تبدأ كلاسيكية ، الا انها تعطي بصورة اوسع وادق لابطالها الملامح الرئيسية التي يتحركون بها ضمن اطار الرواية . ولعل من ابرز الملاحظات في هذه البداية انها تعتمد على الحوار النفسي بصورة تجسد شخصيات الابطال ، فنحس بهم بيننا ، ونحس بانفسنا بينهم وهم يتداولون في قضية الارث ، كذلك نقف على دخيلة نفس كل منهم حينما يتحدثون ، وحينما يصمتون ، وحيثما وكيفما يتحركون !

ان هذا التركيز الدقيق على صقل شخصيات ابطال الرواية ، قد اعطى الرواية قيمة خاصة من وفرة التكامل ، يضاف الى ذلك الروح الساخرة التي تشيع في جوانب الرواية الحياة والدفء .

قلت ان الرواية مستمدة من واقع الريف ، لكن طابعها المميز انها تعكس نفسية الريف ، وتهتم بعرض علاقات الافراد بعضهم مع بعض قبل كل شيء . فمكان الرواية وزمانها ذلك المنزل الريفي الذي يقيم فيه الاخ « الحاج فهد » ، وهذا المنزل لم يتغير طوال فصول الرواية ، لان المؤلف عاقد العزم على التحليل النفسي ضمن اطار مكاني موحد ، لذلك نجد ان اشخاص الرواية يتحركون ضمن هذا الاطار بصورة اوضح مما لو كانوا يتحركون ضمن عدة اطر .

واسلوب الرواية اسلوب هادىء ، يعتمد على الواقعية في التعبير ، كما انه يستشهد بالحكم الشعبية المتعارف عليها في الريف . الا انه يسيء كثيرا الى الرواية تهاون المطبعة في تحاشي الاخطاء والاحرف والنقاط الناقصة .

ويجدر بي ان اقف وقفة خاصة عند الغموض الذي يكتنف موقف التعرض الفجائي لسيرة الاخت « مرضية » في الفصل الثالث ص ٦٩ . وكان ابعث على الاثارة لو توفر عنصر المفاجأة في حديث « الطناني » الذي جرى على لسانه حديث التعرض لسيرة الاخت مرضية . وما دام هذا الطناني منافقا مرابيا فقد كان كفيلا بان يفي بالغرض وان يقذف بالمفاجأة دون حرج . كما ان نهاية الرواية تبدو مضغوطة بعض الشيء ، فعودة المزارعين من الحقول في ذلك الجو المحموم مع الاخ « فهد » وزوجته يعني ان شيئا ما قد طرأ على الموقف اذا عرفنا ان الاخ فهد اتجه الى الحقول هربا من العار . كما ان تلك العودة تعني ايضا ان تغيرا جديدا قد داهم دور كل من « الجساس » و « البطش » و « الطناني » حتى جعلهم يعودون بالاخ فهد سالم وهم الذين يريدون ان يمتصوا دمه حقدا ، الا ان ايضاحا ما ولو تنويها لا يقترن بتلك العودة . كما ان حادث مقتل « الدهشان » لا يبدو متماسكا مترابطا ،



ظهر حديثاً

• المطالعات في مختلف المؤلفات ـ تأليف محمد علي الموسوي الحمامي ـ ٥٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة السيد الحمامي ـ مطبعة الاداب في النجف .

• السامرية ـ مسرحية ـ تأليف ميشيل سليم يمين ـ تقديم الاب ميخائيل وهيبة ـ ٨٠ صفحة ـ منشورات مكتبة جبران بمصر الجديدة ـ المطبعة التجارية الحديثة (؟)

• ادباء السجون ـ طبعة جديدة منقحة ومزيدة ـ تأليف عبد العزيز الحلفي ـ ٤٧٢ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• الانسان الحديث دراسة في مزاجه وقضاياه ـ تأليف جوزيف وود كرتش ـ ترجمة بكر عباس ـ ٢٨٠ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت .

كذلك عودة الاخت مرضية الى دار اخيها فهد وذلك في الصفحات ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٤ من الرواية .

ولا يجدر بي ان اتغاضى عما وراء هذه الرواية من هدف بعيد . فالمؤلف انسان آل على نفسه ان يضع قلمه في خدمة القضايا الانسانية ، وان يجند لها كل قواه ، ويدلنا على ذلك بكل وضوح التيارات الخفية التي تتجاذب اطراف الرواية وتجعلنا نؤمن بقوة بان المؤلف عاكف على دراسة شخصيات الريف بكل ما فيها من سذاجة وضعف ولؤم وحقد وجبروت ... ويمكننا بمزيد من الثقة ان نقول ان الرواية عمل ادبي انساني يستغني عن المظاهر الخارجية ويصب اهتمامه على النقد والتحليل والدراسة .

ولا غرو في هذا كله ، فمؤلف الرواية انسان مثقل بالتجارب ، مرهف الحس ، يفتح صدره وذراعيه لاستقبال انين المعذبين لانه كان واحدا منهم فيما مضى . واذا كان المؤلف قد استغنى عن الزخرفة في الالفاظ والتعابير ، فلانه لا يجد لديه متسعا من الوقت يضيعه في افانين تبعده عن الغاية التي ينطلق اليها ... وهي اشباع نهمه الى الحقيقة العارية.

ان غنى النفس بالتجارب والانفعالات والخواطر يجعلها تزهد في ممارسة الاساليب البهلوانية ، والتغلغل في الدهاليز ، لان الفكرة الناضجة لا تحتمل وضعها في ارجوحة وهزها ... ان نضجها يغني عن كل التعاويذ والبخور الذي ينشر حولها . ولا شك في ان قلما يحمله اديب مخلص نزيه كمحفوظ عبد العال غانم ليعد باكثر من عطاء ... ومن عادة الينابيع انها تتدفق ... دون موعد .

حلب — ممدوح مولود

• جمهرة المغنين ـ تأليف خليل مردم بك ١٨٩٥/١٩٥٩ ـ وقف على طبعه وعلق عليه عدنان مردم بك واحمد الجندي ـ ٢٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ المطبعة الهاشمية بدمشق

• نهاية قصة ـ مجموعة قصص ـ تأليف فؤاد عبيد ـ تقديم ابراهيم العريض ـ ١٥٠ صفحة ـ مع عدة رسوم ـ منشورات المكتبة الوطنية في البحرين ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• اناشيد الالهة ـ قصة ـ تأليف جوزيف ابي فرحات ـ تقديم حسيب عبد الساتر ـ مصمم الغلاف انطوان كرياكوس ـ ١١٦ صفحة ـ مع عدة لوحات للمثال رودان ـ مطابع المتني بفرن الشباك بيروت .

• اللاعائلية ـ تأليف خضر نبوه ـ ٧٠ صفحة ـ طبع في بيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• رباعيات ابي نواس ـ تصنيف رامز حيدر ـ ٦٦ صفحة ـ مطابع لبنان (؟)

• التحدي الكبير ـ تأليف نهاد القادري ـ الغلاف تصميم جبارة ـ ١٦٨ صفحة ـ مطابع الف ليلة وليلة ببيروت .

• ما اقل الثمن ـ مجموعة قصص ـ تأليف محمود سيف الدين الايراني ـ مصمم الغلاف سلامة خوري المهندس ـ الرسوم الداخلية والخطوط بريشة عبد اللطيف عطية ونايف نعناعة ـ ٢٠٠ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• الثورة عناصرها تحليلها نتائجها ـ تأليف كريس برنتون ـ ترجمة زياد عناب وشجاع الاسد ـ ٤٢٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

• صراع الطبقات ـ تأليف ريمون آرون ـ ترجمة عبد الحميد الكاتب ـ ٢٩٢ صفحة ـ حجم كبير ـ سلسلة المكتبة الفلسفية ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطبعة منشورات عويدات ببيروت .

• مذكرات بحار ـ شعر ـ للشاعر الكويتي محمد الفايز ـ ٧٨ صفحة ـ مطبعة حكومة الكويت .

• دروس في الحب والزواج ـ تأليف ابراهيم المصري ـ ٢٥٠ صفحة ـ منشورات دار الروائع ببيروت ـ مطبعة الجهاد (؟)

• صور من الانسان ـ مجموعة قصص تحليلي ـ تأليف ابراهيم المصري ـ ٢٣٤ صفحة ـ حجم كبير ـ العدد ١٢٢ من سلسلة الكتاب الماسي ـ الدار القومية للطباعة والنشر (؟)

• قلوب الخالدين ـ صور نفسية وعاطفية لطائفة مختارة من عظماء الادب والفن ـ تأليف ابراهيم المصري ـ رسم الغلاف بريشة يوسف فرنسيس ـ ١٤٤ صفحة ـ العدد ٢٦٩ من سلسلة «اقرأ» ـ منشورات دار المعارف بمصر ـ مطابع دار المعارف بمصر بالقاهرة .

• خطوات على الشلال ومشاهد اخرى ـ وصف لموطن « السد العالي » وما هنالك من آثار ومعالم الى وصف مشاهد اخرى ـ تأليف محمود تيمور ـ ١٠٤ صفحة ـ مطبعة الكيلاني الصغير (؟)

• نقاط على الحروف : نقد وتعقيب ـ تأليف وداد سكاكيني ـ تقديم الدكتور محمد مندور ـ ٢٦٢ صفحة ـ منشورات دار الفكر العربي (؟) ـ دار الثقافة العربية للطباعة (؟)

• الاشتراكية في التجارب العربية ـ لطائفة من المفكرين ـ ٢٨٨ صفحة ـ العدد ١ في سلسلة الفكر العربي ـ منشورات دار الكتاب الجديد (؟) ـ مطابع مؤسسة الانتاج الطباعي في بيروت .